

روايات مصرية للجيب
سلسلة الروايات
7
Looloo
www.dvd4arab.com
عين القط
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مقدمة أخرى لا ضرورة لها

يقولون إنه من السهل أن تكون مسليًا للمرة الأولى ، بقدر صعوبة أن تكون على نفس الدرجة من التسلية فى المرة الثانية ..

ثم تسقط كل الصعوبات فى المرات التالية !!!

أنا لا أدرى من قالها ، ولا أدرى إن كان على حق أم لا ..

لكنى أجد نفسى اليوم فى هذا المأزق ، مأزق أن تتحدث للمرة الثانية ، فيكون عليك أن تزن كلماتك ألف مرة حتى لا يكون أثرها أقل من سابقتها ..

وأعود فأسأل نفسى : هل كنت مسلية وممتعة حقًا فى المرة السابقة ؟!

هل أثار السيد (س) فى قلوبكم وعقولكم تلك الدوائر الكثيرة المتحدة المركزة التى يثيرها إلقاء حجر ثقيل فى بركة المياه الراكدة ؟!

لن أعرف ، لكن يكفينى أن تقع أعينكم على هذه السطور لأعلم أنكم ـ مثلى ـ تبحثون عن هوية رجل بلا هوية ، وعن

ملامح وجه بلا ملامح ، وعن حقيقة إنسان لا يعرفها أحد غير الله (سبحانه وتعالى) ..

لا أظنكم قد نسيتمونى بعد ، الآنسة (نسرين) ، الصحفية التى بدأ صيتها يذيع نوعًا من خلال تحقيقاتها الساخنة فى جريدة (الأربعاء) ، ولا أظنكم ـ بالتالى ـ قد نسيتم الرائد (هشام) ، ضابط الشرطة الوسيم الذى نجح فى امتلاك قلبى ، لكنه ما زال يحاول معى سبر أغوار هذا اللغز المستحيل ..

السيد (س) ..

لم أرو لكم حتى الآن إلا النذر اليسير من تلك الأسرار المستغلقة على الفهم والتفسير ، لم أرو إلا بداية معرفتى بـ (رجل من وهم) ، استطاع أن يصبح يومًا ما هدفًا لحياتى ، وجوهرة فى قلب كهف فى أعالى جبال الظلام ، ليس لى هم إلا نيلها مهما علت الجبال ومهما استعصى على العثور على الكهف ..

إنه حولى ، أعلم أنه يعلم ، وهو يعلم أننى أعلم أنه يعلم ، ولا تكتمل الدائرة أبدًا ، مهما بذلت جهدى فى محاولة كشف السر، أو إماطة اللثام عنه ..

أقرأ فى عيونكم سؤالاً أحاول الفرار من إجابته ، دون جدوى :

ـ هل سينكشف السر يومًا ؟!

وأظنكم أذكى من أن تتوقعوا منى إجابة سريعة (تيك أواى) ، فلن أخاطر أبدًا بكشف أوراقى ونحن ما زلنا فى بداية اللعبة ..

اللاعب الخائب ، أو المبتدئ ، هذان فقط هما من يفعلانها ، وأنا لا أحب كلا الوصفين ..

لنبدأ من حيث انتهينا ، ولنطرح السؤال الذى يمكننى أن أجيب عنه بكل استفاضة :

ـ متى ظهر السيد (س) للمرة الثانية ؟

سأطرقع مفاصل أصابعى ، وأعود بظهرى للوراء ليلامس مسند مقعدى الوثير ، وربما وضعت ساقًا فوق أخرى ، وبدأت فى رواية قصتى مع السيدة (شيرويت) ..

أما بخصوص حقيقة السيد (س) ، فحتى نغلق هذا الباب تمامًا ، ليس لدى أكثر من كلمة (ربما) ..

ربما عرفنا حقيقته معًا يومًا ما !

دعونا نطرح هذا السؤال الأبدى الخالد :

ـ من يدرى ؟!

* * *

١ ـ قطط ..

أنا أكره هذه المخلوقات الصغيرة ذات الشوارب والمخالب ، والعيون اللامعة !

نعم .. أنا أكره القطط ..

لا أرى فيها إلا الوحشية والشراسة ، ولا أدرى كيف يستطيع أى إنسان أن يأخذ هذا الكائن المرعب فى أحضانه ، ويمسح بكفه على ظهره مستلذًا بموائه الرهيب ، أو باستكانته الخادعة ..

وصدقونى ، أنا لا أقول هذا من باب (خالف تعرف) ، ولا أحاول أن أبدو متميزة بفرض آرائى الغريبة عليكم ، لكنها ربما كانت عقدة نفسية قديمة رسبتها فى أعماقى تجربة طفولية لا تنسى ..

من الصعب أحيانًا أن نتذكر ما حدث لنا بالأمس ، ومن المستحيل غالبًا أن تحتفظ أوعية الذاكرة بتفاصيل الطفولة المبكرة ، ولكن ، هناك أحداثًا تنطبع فى أعماقنا كوشم لا يمحى ، نظل نذكرها مهما مرت الأيام وطوت السنون السنين !

كان هذا فى الرابعة ـ تقريبًا ـ من عمرى !

طفلة وحيدة ، فقدت أمها يوم مولدها ، وانشغل والدها الجراح بمرضاه وعملياته التى لا تنتهى ، وبرغم محاولاته الجاهدة للتعويض ، إلا أنها ـ رغمًا عنها ـ شعرت باليتم ، وبالوحدة القاتلة ..

كانت الدادة (رئيفة) ـ رحمها الله ـ هى السلطة العليا ، هى الدنيا المنزلية الصغيرة التى يدخلها الأب ـ الدكتور (فاروق) ـ من حين لآخر بفيضان مشاعره الأبوية المفعمة بالحنان والطمأنينة والراحة .. ثم يعود للانغماس فى أعماله ومشاغله ..

ـ دادة (رئيفة) .. أريد النزول للعب فى الشارع !

لم تكن ترفض لى مطلبًا ، كانت تمثالاً يمثل الطيبة والوداعة ، برغم كبرها فى السن ، ولهجتها النوبية التى تستعصى على فهم طفلة صغيرة مثلى أحيانًا ، لذا لم أتوقع منها إلا السماح لى بالنزول مع ضرورة الحفاظ على سلامة ملابسى ونظافتها !

إن جميع أطفال البناية ـ فى مثل سنى وقتها أو أكبر قليلاً ـ كانوا يلعبون فى الشارع الضيق الخالى دومًا من السيارات والمارة ، والذى تطل عليه شرفات البناية الخلفية ..

كانوا ستة أو أكثر ما بين بنين وبنات ، وما دام أهلوهم

قد سمحوا لهم بامضاء الوقت هناك ، فما المانع من أن أشاركهم اللعب ؟!

لكن دادة (رئيفة) أعلنت رفضها القاطع !

تفوهت بمصطلحات نوبية كثيرة لم أفهمها ، ومع نبرة الجزع فى حديثها وحركات سبابتها الرافضة فى الهواء ، أيقنت أنها لن تسمح أبدًا بالنقاش فى ذلك الأمر !

ثم .. أى نقاش وأنا بعد فى الرابعة ؟! وحصيلتى اللغوية لا تكاد تكفى لأن أطلب منها دون أن أفهم مسببات رفضها للطلب ؟!

اتجهت إلى الشرفة فى خطى بائسة ، وأمسكت بالقضبان الحديدية لسورها وأنا أرقب الصبية ، وهم يلعبون (الأولة) ..

هل كنت أشعر بالحسرة ؟!

بالتأكيد !

ومن المؤكد أيضًا أن بعضهم قد انتبه لوجودى فى الشرفة ، فأخذوا يشيرون لى بالنزول ومشاركتهم مرحهم ، ولما أشرت لهم بعدم استطاعتى ، لم يبد عليهم الفهم ، واستمروا يشيرون لى ـ بإلحاح ـ أن أهبط لألعب معهم ..

ولا يسألنى أحد عما حدث بعدها ، لكن الدادة (رئيفة) قالت فيما بعد إنها انشغلت تمامًا فى المطبخ ، انشغلت إلى الحد الذى

لم تستطع معه أن تنتبه إلى أن طفلة صغيرة فى المنزل قد أحضرت مقعدًا ، تسلقته بخفة لتفتح مزلاج الباب ، ثم تنطلق بكل رغباتها المكبوتة إلى حيث يلعب أترابها فى الشارع ..

لكنى أذكر ما حدث بعدها جيدًا ..

أذكره وكأنه بالأمس قد حدث ..

أذكر تمامًا ذلك الصبى السمج ، ذا الشعر الأشقر الذى يسدل على جبينه بعناية كأنه قبعة خيوطها من حرير ، والوجه الملىء بالبقع الداكنة كأنه جلد ثعبان أرقط ، والعينين الموحيتين بشر طفولى تسوده الرغبة فى العبث بالآخرين وفرض السيطرة عليهم ..

ـ ما اسمك يا فتاة ؟!

قالها مغلظًا صوته كأنه يحاول أن يبدو رجلاً قبل الأوان ، أو كأنه يحاول فرض زعامة وهمية على كل فرد جديد ينضم للمجموعة ..

ـ (نسرين) !

ـ تبدين أصغرنا سنًا !

كان محقًا ، فهو يبدو فى السادسة أو أكبر ، وأنا بجسدى الضئيل والضفيرتين القصيرتين المنسدلتين على جانبى رأسى أبدو مثل

كتكوت مبتل ! أضف إلى ذلك ملابسى المنزلية (البيجاما) وخجلى الشديد الذى يلجم لسانى ويكسو وجنتى بلون قشرة البندورة !

ـ هل ستلعبين معنا (الأولة) ؟!

سألتنى طفلة ، ولم أكن أعرف ما هى (الأولة) التى تسألنى عنها ، ولم أعرف أبدًا قواعد اللعبة حتى منتصف الحلقة الابتدائية ، لكننى هززت رأسى بالموافقة !

ـ أنا لم أوافق على انضمامها لنا بعد !

قالها الصبى السمج عاقدًا ساعديه أمام صدره ، ربما ليعطى نفسه حجمًا أكبر من حجمه الحقيقى ، فهتفت به الفتاة :

ـ ماذا تقصد يا (تامر) ؟!

وهتف به صبى آخر :

ـ إنها تسكن معنا فى نفس البناية !

رمقنى (تامر) بنظرة ازدراء مازلت أذكرها للآن قائلاً :

ـ لكنها تبدو فتاة (عبيطة) !!

لم أجد المصطلح الدقيق الذى يفى بغرض الكلمة ، فرأيت أن أكتبها كما هى ، خاصة أنها المرة الأولى التى يصفنى أحد فيها بالـ (عبط) فى حياتى !

المهم أننى وجدت الفتاة تجذبنى من يدى الصغيرة ، وهى تقول عاقدة حاجبيها :

ـ ستلعب معنا على رغم أنفك !

وانهالت تعليقات الأطفال المؤيدة لوجودى معهم ، ووجد (تامر) نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فرداء الزعامة الذى ألبسه لنفسه ، ها هى طفلة (مفعوصة) يراها لأول مرة تخلعه عنه ..

وأضمر الانتقام ..

جلست أنا فوق طوار الشارع أراقب الفتيات اللاتى يقفزن فوق المربعات الواسعة المرسومة بالطبشور الأبيض فوق أسفلت الشارع ، بعد أن قالت لى الفتاة :

ـ ستلعبين بعد أن نفرغ من هذا الدور ..

كان عقلى الصغير يحاول فهم هذه اللعبة الغريبة ، عندما ..

فوجئت بشىء ما يتعلق بكتفى ..

نهضت وأنا أصرخ بفزع ، ثم بألم وأنا أشعر بمخالب هذا الشىء تخمش جلد ظهرى .. لقد حقق الصبى اللعين (تامر) انتقامه ..

وقد كان انتقامه عبارة عن قطة متشردة أمسك بها ثم قذفها فوق ظهرى ، ليختلط فزعى ، بفزع القطة ، بصراخ الفتيات اللاتى آلمهن المنظر ، بضحكات (تامر) المتشفية الساخرة ، بهتاف دادة (رئيفة) الذى لم يفهمه أحد ، والتى انتبهت لغيابى فى هذه اللحظة بالذات فخرجت للشرفة تبحث عنى !

ولم يدم الأمر سوى لحظات ، كان هلعى فيها قد بلغ ذروته ، وصراخى الباكى قد بلغ عنان السماء ، وعواء القطة قد أصبح لدىّ مرادفًا لزئير أسد يريد التهامى ، حتى امتدت يد ترفع جسد القطة المتخشب عن ظهرى ..

كانت يد صبى ـ لم أره من قبل ـ يدعى (هشام) !

نعم .. ما تفكرون فيه صحيح ، إنه (هشام القاضى) منقذ الأمس ، وخطيب اليوم ! لم أنتبه إن كان يلعب معنا منذ البداية أم لا ، وهو نفسه لا يذكر هذه الواقعة ، فالقطة لم تكن تخمش ظهره هو !

وهنا ، وصلت دادة (رئيفة) إلى (مسرح الجريمة) ..

وانطلقت توبخ (هشام) الممسك بالقطة ، ظنًا منها أنه هو من ألقاها فوق أكتافى ، وعبثًا حاول الأطفال إفهامها أنه هو من رفعها عنى ، وأن من ألقاها هو (تامر) ، لكن هذا الأخير اختفى من المكان تمامًا ، كأنه لم يكن موجودًا من الأصل ..

أما أنا ، فقد كان التفاهم معى أو حتى حسابى على فعلتى الشنعاء بالهروب من المنزل من رابع المستحيلات ، وسط بكائىَ الحار الذى لم ينقطع ..

لقد كنت أريد فقط أن ألهوَ مع أطفال الجيران ..

فما جريمتى إذن ؟!

★ ★ ★

٢ ـ عودة السيد (س) ..

حدجتنى السيدة (ألفت) ـ رئيسة التحرير ـ بنظرة خاوية من خلف عويناتها المستطيلة المنزلقة فوق أنفها ، قائلة :

ـ جيد !

ولم يكن هذا يعنى لى سوى أمر واحد ..

لقد فشلت ، وبجدارة !

صحيح أن الكلمة تحمل تقييمًا لا بأس به لما قرأته أمامها من مواد صحفية شقيت ـ لأكثر من أسبوع ـ فى جمعها ، وتنظيمها ، وتنقيحها ، ومعالجتها فنيًا ، لكنى فى هذه المسائل لا أقبل أبدًا بأنصاف الحلول ، وما لم يحمل تقييمها لما طالعته عبارات من نوع (مذهل) ، (عظيم) ، (إنك تزدادين خبرة ونضجًا بمرور الوقت) ، (إن لك مستقبلا باهرًا فى بلاط صاحبة الجلالة) ، (لا بد أن يلحق هذا الموضوع بالمطبعة فورًا) .. فمعنى هذا أننى فشلت ، وأن مجهودى قد ضاع سدى ..

لقد قالها (هاملت) فوق خشبة المسرح الشكسبيرى منذ قرون انطوت :

ـ أكون ، أو لا أكون ..

ولم يقل شيئًا عن منطقة تتوسط الخيارين !

سألتها وأنا عاجزة عن إخفاء امتعاضى :

ـ أيها الأفضل ؟!

رفعت العوينات أمام عينيها بطرف سبابتها ، وعادت تنظر فى الصفحات قائلة فى غير حماسة :

ـ موضوع صيحات الأزياء الغربية السائدة بين الشباب قديم ، قتلته الصحف والمجلات الأخرى بحثًا ونشرًا ، أما عن قضية الموظف الأمين الذى رفض تقاضى الرشوة فهو جيد ، لكنه ضعيف من حيث البناء ، وخبر الحوادث الخاص باختفاء الزوج دون سابق إنذار تنقصه مزيد من التوابل الصحفية ، وموضـ ..

وكما يحدث فى السينما ، لم أسمع حديثها حتى آخره ، وشردت بناظرى إلى المجهول ، بينما ظلت شفتاها تنفرجان وتنقبضان ، ولكن دون أن تتجاوز ذبذبات صوتها طبلة أذنى .. وكنت أعرف فيم أفكر ..

لقد مضى شهر أو يزيد منذ أن نشرت لى الصحيفة خبر الحوادث الأول ، الخاص بمصرع طالب طب على يد خطيبته الممرضة ، وبعدها لم أقدم أى شىء ذا قيمة ..

إن موقفى فى الصحيفة يتدهور ، وما لم أثبت أننى جديرة بمركزى الصحفى الذى بشر به عملى الأول ، فلن أعدم أبدًا من يمصمصون شفاهم ، ويهزون أكتافهم ، ويهتفون فى نبرات لا تنقصها الشماتة :

ـ كانت صدفة لا أكثر ..

حقًا .. أحتاج لضربة صحفية فى قوة سابقتها ، ولكن من أين لى بالعثور عليها ، والسماء ـ من أيام عمر بن الخطاب ـ لا تمطر ذهبًا ولا فضة ؟!

إننى أعلم كيف .. ولكن ..

ـ مازلت أنتظر منك الأفضل ..

قالتها السيدة (ألفت) ، والمعنى لكل لبيب بالإشارة يفهم ، تفضلى بالمغادرة ولا تعودى إلا بموضوعات تستحق ، أو لا تعودى إلى هنا مرة أخرى ..

لقد اعتبرته بمثابة إنذار أخير ...

سيارة أجرة فى هذه الساعة من الظهيرة الحامية حلم بعيد المنال ، لا مفر من المشى حتى أقرب شارع رئيسى ، متى ينفذ والدى وعده بسيارة (نصف عمر) ؟!

إنها ستفى بالغرض حتمًا ، وستوفر الكثير من الوقت والجهد المُهدرين ..

ربما بعد ظهور النتيجة .. لكن الامتحانات مازالت بعيدة ، فحتى متى أنتظر ؟!

وتحقق الحلم أخيرًا .. ووجدت سيارة أجرة خالية !

وفى المقعد الخلفى ، بدأت خواطرى تنساب من جديد ..

أو لعلها ذكريات ..

صنف السيد (س) كما شئت ، خواطر أو ذكريات أو تأملات ، لكنه سيبقى لغزى الذى لا أملّ أبدًا البحث عن حل له ..

أحتاج إلى ظهورٍ جديد له ، ظهور مباغت قوى كالمرة السابقة ، عله يمنحنى قصةً جيدةً بحق ـ لا كما تصفها السيدة ألفت ـ تعوضنى عن غيابه الطويل ..

توقعت كثيرًا خلال الفترة الماضية ، أن يحاول الاتصال بى ، أن يرسل لى برسالةً أو حتى ببطاقة خالية تحمل توقيعه ، توقعت أن يقابلنى صدفةً فى الشارع أو الكلية ، لكنه اختفى تمامًا ، وبدا كالطيف الذى يمر مرور الكرام ، سريعًا خفيفًا !

لكنه أبدًا لم يغادر تلافيف مخى ، والأدهى أننى رحت أتصور ملامحه وهيئته ، ورحت أتخيل تفاصيل حياته وأقارنها بكل الأبطال الخارقين الذين احتلوا مخيلتى منذ بدأت أقرأ أو أفهم ..

هل هو مليونير يعيش فى الظلام كـ (بروس وين) ، الذى يتحول إلى (باتمان) عندما يجتاح الشر مدينة (جوثام) ؟!

أم يكون (سوبرمان) الذى جاء من (كريبتون) لنشر السلام فوق الأرض ؟!

أم لعله (روبن هود) أو (زورو) طريد العدالة الظالمة ؟!

كلا ، إنه يتفوق عليهم جميعًا فى نقطة ما زالت للآن فى صالحه ..

إنه الرجل الذى لا يعرفه أحد .. حتى أنا شخصيًا !

برغم أننى الوحيدة التى أكتب عنه ، والتى تحادثه بالهاتف أو البريد ، إلا أنه خال تمامًا من عقدة كل هؤلاء الأبطال ـ وغيرهم ـ الأساسية ..

إنه ليس نرجسيًا بالمرة ..

إنه الرجل الظل ، كما أطلق على نفسه فى أحلامى ..

لا أحد يعرف حقيقته ، إلا هو ، وهو على ما يبدو سعيد بهذا كل السعادة ..

وهو لا يظهر إلا لسبب ، ويعرف كيف وأين ومتى يظهر ، ويعرف كذلك كيف وأين ومتى يظهر دون أن يراه أحد ..

هنا يكمن الاختلاف ..

ـ هنا يا آنسة ؟!



ولكم أن تحذروا من وجدت فى انتظارى جالسًا داخل سيارة زرقاء عليها شعار الشرطة ، مسترخيًا يدخن فى تلذذ ؟!

نقدتُ السائق واتجهت نحو مدخل البنايـة ، ولكم أن تحذروا من وجدت فى انتظارى جالسًا داخل سيارة زرقاء عليها شعار الشرطة ، مسترخيًا يدخن فى تلذذ ؟!

على الفتيات أن يغضضن أبصارهن فـورًا ، إنـه خطيبى كما يعلم الجميع ..

ـ ها قد وصلت صحفيتنا اللامعة !

لماذا يساورنى ذلك الشعور الدائم بأن كلامه جملةً هو عبارة عن توريةٍ يقصد بها التلميح دون التصريح ؟!

أم لعلنى مخطئة !

ثم إن وجـومى ـ استغرابًا لوجوده ـ قد سد علىَّ أبـواب التفكير ..

ـ أهذا ترحيبك بى ؟!

ـ عذرًا .. إننى مرهقة بالفعل ..

ـ كان يومًا شاقًا .. أليس كذلك ؟!

ـ إنه دومًا كذلك !

ساد بيننـا الصمت ترقبًا من كل منا لما سيقوله الآخر ، أنا لا أعتقد أنه قد حضر ليخبرنى بكون اليوم شاقًا ثم يقفل عائدًا إلى عمله !

لكنـه مصر على التمـادى فى صمته ، وبسمته تزيد الموقـف سوءًا ، إننى مع هـذا الجو الخـانق أكون دائمـا قنبلة موقوتـة لا يفجرها إلا صمت مستفز كهذا ..

ـ عذرًا ، أبى فى العمل ، ولن أستطيع دعوتك للغداء ..

ـ لقد تناولت طعامى بالفعل ..

ـ حقًا .. هذا رائع .. اسمح لى إذن بالاستئذان ..

أعلم أننى أتظاهر بالوقاحـة ، أو أننى كنت وقحـة بالفعل ، لكن ليدلنى أحدكم على تصرف أليق من هذا !

ـ انتظرى ..

ـ رائع .. يبدو أنك ستتوج مجيئك بأنباء تستحق ..

ألقى بعقب السيجارة مستخدمًا سبابته وإبهامه وهو يقول :

ـ ظننت مجرد مجيئى للاطمئنان عليك سيصنع فارقًا ..

ـ إنه كذلك ..

تنهد وقال ماطًا شفتيه :

ـ حسن يا فتاتى العملية ، إنه نبأ قد يهمك ..

سألته باستخفاف :

ـ قضية أخرى ؟!

ـ ذات طابع خاص ..

كل القضايا لـدى (هشـام) ذات طابع خاص ، حتى تلك التى تحدث فى اليوم عشرات المـرات ، ولـولا هذا لمـا كنت حظيت بتلك الـ (جيد) الفاترة من السيدة (ألفت) !

ـ ألم تستطع إبلاغى بها عن طريق الهاتف ؟!

هز رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلا ، فضلت المجىء بنفسى لسببين : أولاً لعلمى أنـك لـن تطيقي صبرًا حتى تطـالعي موقـع الجريمـة ، ففضلـت أن آتـى لاصطحابك إلى هناك ، وثانيًا ـ وهو الأمتع ـ أن أرى انطباعك عند معرفة كنه الجريمة ..

إلام يشير (هشام) ؟!

هل ؟!

ـ لقد عـاد السيد (س) .. وبطريقـة خـاصـة للغـاية ، لم أتوقعها أنا نفسى ..

وهبط قلبى فى قدمى ..

* * *

٣ - حجر كريم ..

الجاليرى (Gallery) فى القاموس هو معرض للآثار الفنية ، أو مؤسسة تعرض وتمارس بيع الآثار الفنية ، ولأننا ما زلنا نفضل الرطان ، أو أن الفئة المتعاملة مع مكان كهذا تفضل استعراض قدراتها ومهاراتها فى حشو المصطلحات اللاتينية بين عباراتها العربية ، فقد شاع اللفظ مثله مثل ألفاظ أخرى كثيرة اكتسبت وجودها فى حديثنا العربى بالأقدمية أو بوضع اليد مثل (دكتور) و(أوكى) و(سينما)و(بوستر) و(كوكتيل) وغيرها .. عذرًا للإسهاب ، لكنى قصدت تبرير استخدامى لمصطلح دارج - برغم كونه أعجميًا - مع خالص الاعتذار لمجمع اللغة العربية ..

* * *

كان (هشام) يتوقع رد فعلى بالقطع ..

فما هى إلا دقائق ، حتى كنت أهبط الدرج قفزًا ، بعد إتمام مكالمة هاتفية سريعة مقتضبة مع والدى بالمستشفى ، أخبره فيها بأننى بصدد مهمة صحفية عاجلة ، حتى لا ينزعج إذا عاد ولم يجدنى بالمنزل ..

ثم انطلقت بنا سيارة (هشام) ..

- أريد كل التفاصيل الممكنة ..

ابتسم (هشام) وهو يرمق المفكرة الصغيرة ، والقلم المتحفز فى يدى ، ربما لقى حظه العاثر الذى أوقعه فى خطبة فتاة (شعنونة) مثلى ، لكنه هز كتفيه فى النهاية مسلمًا بقضاء اللّٰه (سبحانه وتعالى) وقدره ، ثم انطلق يروى ما لديه ..

- إنها جريمة سرقة هذه المرة ..

هذا حسن .. تكفى الدماء والأرواح فى القضية السابقة ..

- هل تسمعين عن (رفقى حسان) ؟!

هززت رأسى نفيًا ، وأنا أخط اسمه ، ثم إنه لا يحدثنى عن (كلارك جيبل) أو حتى عن (حسين فهمى) ليتوقع منى معرفته !

- حسن .. إنه صاحب (جاليرى) ذى شهرة محدودة بين الأوساط المتعاملة والشغوفة بهذه الأمور ..

أعرفهم ، ذوى الياقات السوداء من رجال ونساء ، يقتلون فراغهم بالاهتمام بالتحف والأنتيكات ، ولا حديث لهم إلا عن المقعد طراز لويس ، أو اللوحة ذات الإطار المذهب طبق الأصل

لـ (فان جوخ) ، أو منحوتة من عصر النهضة (الريسناتس) كما يسمونها بالأعجمية ، أو المزاد الذى تقيمه السيدة (فلانة) هانم لبيع تحفة ابتاعتها من أسواق (روما) ! أعرفهم ، وأشعر بالاختناق إذا جالست أحدهم لأكثر من دقيقة ونصف ..

تابع (هشام) والسيارة تنهب بنا الأرض نحو الـ (جاليرى) بالطبع :

ـ تقدم السيد (رفقى) صبيحة اليوم ببلاغ بخصوص سرقة واحدة من تحفه الثمينة .. حجر كريم تقدر قيمته بمئات الألوف ..

وبرغم خبرتى المحدودة فى هذا الصدد ، وجدتنى أسأله :

ـ من أى نوع ؟!

ـ إنه يحمل اسمًا مميزًا ، هو فى الحقيقة تشبيه أدبى أنيق يعرفه كل خبراء الأحجار الكريمة فى العالم ، وإن كنت سمعته اليوم لأول مرة فى حياتى ..

وبعد لحظة قال وهو يحاول إضفاء لمسة من الجلال على الاسم :

ـ (عين القط) !

متناسية خوفى القديم من مجرد ذكر اسم الفصيلة الحيوانية

التى لا تعنى بالنسبة لى سوى الشراسة والوحشية ، دونت الاسم ، وكان (هشام) ينعطف بالسيارة إلى شارع جانبى وأنا أقول :

ـ وماذا أيضًا ؟!

ـ ضمّن السيد (رفقى) بلاغه بقصاصة ورقية صغيرة ، تحمل توقيعًا مألوفًا ، وجدها حسبما يقول فى نفس المكان الذى كانت التحفة المسروقة تحتله ، فى خزانة معرضه الكبيرة ، التى لا تفتح إلا بواسطة رقم سرى خاص مكون من ٩ أرقام .. أظنك تستطيعين استنتاج صاحب التوقيع !

هتفت مبهورة :

ـ السيد (س) ..

تنهد ثم قال :

ـ أجل ، مع عبارة تفوح منها سخرية بينة ، يقول فيها (لا عزاء للفئران) !

لم أفهم العبارة لأول وهلة ، لكنى بعد لحظة وجدت نفسى أبتسم رغمًا عنى .. إذن فالسيد (س) ما زال يسخر من كل شىء ، وأى شىء ، ويلهو بالعبارات كيفما شاء ، لقد سُرقَتْ (عين القط) .. لذا فلا عزاء للفئران !

كنت أعرف أن (هشام) لن يخبرنى بالمزيد ، لكنى سألته :

ـ أهذا كل شىء ؟!

ـ إنه ليس بالشىء اليسير ..

ـ ولكن ما معنى عبارته هذه ؟!

ـ إنه يلهو بنا ! أو يسخر منا ! لا فارق فى ما أظن ..

وجدت حاجبى ينعقدان فى غضب وأنا أسأله :

ـ ماذا تقصد ؟!

ـ المعنى الواضح مما حدث ، سارق واثق من نفسه ، تدفعه نرجسيته لترك رسالة مهينة لرجال الشرطة الذين يصفهم بالفئران ، فى موقع جريمته ..

ماذا كنت أخبركم منذ قليل عن الميزة التى ترفع السيد (س) فوق الأبطال الآخرين ؟!

آه .. تذكرت .. خلوه من عقدة النرجسية !

ـ تعنى أن السيد (س) هو السارق ؟!

ـ وهل لهذا معنى آخر ؟!

ـ وجود القصاصة فى مكان الحادث لا يعنى أن تاركها هو السارق ..

قال فى سخرية :

ـ حقًا ؟! ماذا يعنى هذا إذن ؟!

فى عناد قلت :

ـ لقد ترك رسالةً فى موقع الجريمة السابقة ، لكنه لم يكن الجانى .. أظنك مازلت تذكر هذا جيدًا .. ثم إنه ..

مط شفتيه ممتعضًا ، وقال مقاطعًا :

ـ أعلم .. أعلم .. لقد أنقذ حياتك ..

قلت متعمدة استفزازه لأقصى مدى ، وأنا أغمض عينى قائلة كالحالمة :

ـ دون حتى أن أراه !

ضيق (هشام) عينيه قائلاً فى صراحة صادمة :

ـ أحيانًا أشعر بالغيرة من هذا الـ (س) !

اتسعت ابتسامتى وأنا أقول :

ـ هذا لو اتفقنا على وجوده أصلاً ..

قال هو هذه المرة :

ـ ماذا تقصدين ؟!

أشحت بوجهى ، ورفعت يدى قائلة :

ـ لا عليك .. كنت أفكر فقط بصوت مسموع ..

وبمجرد أن أنهيت عبارتى ، وجدت جذعى يندفع للأمام ـ بفعل القصور الذاتى ـ عندما ضغط (هشام) كابح السيارة بكل قوته (أو كل غيظه) .. وبعد أن توقفت بنا السيارة تمامًا أشار إلى نقطة ما عند الرصيف الأيمن قائلاً :

ـ ها هو ذا مسرح الجريمة ..

(جاليرى رفقى) مع إضاءة خضراء مميزة ـ برغم أن الشمس لم تغرب بعد .. التحف والآثار تبرز بوضوح من خلف الواجهة الزجاجية البراقة ، وفور دخولى خلف (هشام) ، أحسست ـ بالحاسة الأنثوية السادسة ـ بلمسة ذوق وجمال متفردة ..

ـ هل عاينت النيابة الموقع ؟!

سألت وأنا ألتهم المعروضات بعينى ، وأجاب (هشام) فى اقتضاب :

ـ بالطبع !

ـ وهل المكان دائمًا خال هكذا ؟!

وكنت أقصد ما قلت ، فلم يكن هناك أثر لأى مخلوق ، لا بائع ولا مشتر واحد ، ولا حتى متفرج فضولى ..

وقبل أن يجيبنى (هشام) ، برز من مكان ما ، ربما من خلف ذلك التمثال العملاق الذى يمثل أحد أبطال الإغريق فى الغالب ، رجل ممتلئ ، طويل القامة ، أنيق ، أصلع الرأس ، يبدو فى منتصف الثلاثينيات ، متجهم القسمات ، قائلاً فى سماجة :

ـ ما الأمر يا سيد (هشام) ؟! هل تريدون فحص موقع الجريمة للمرة الألف ؟!

ارتبك (هشام) لوهلة إذ لم يتوقع هجومًا صفيقًا بهذه الصورة ، لكنه تمالك نفسه بسرعة قائلاً :

ـ كلا يا سيد (رفقى) ، ولكن خطيبتى الآنسة (نسرين) تعمل صحفية و ...

وخلافًا لظنى وظن (هشام) لم يهدأ الرجل ، بل ثار هاتفًا :

ـ صحافة ؟! لا .. هذا ما كان ينقصنى ..

وكأى اثنين فى هذا الموقف المحرج لم تنبس ـ أنا و (هشام) ـ ببنت شفة ، بينما واصل (رفقى) هتافه .

ـ اسمع يا سيد (هشام) أنا رجل له سمعته فى السوق ، وفى سوقنا هذه بالذات نمقت الفضائح ، لأنها لا تحمل سوى

معنى واحد فقط .. النهاية ، نهايتى كصاحب (جـاليرى) ليس له من زبائن إلا فى الأوساط الراقية .. الـ (هاى كلاس) !

ورمقنى بنظرة مشتعلة ، ثم أضاف :

ـ ولست مستعدًا لإنهاء مستقبلى فى هذه المهنـة ، لمجرد نصر صحفى تحققه خطيتك ..

نعم .. لست مستعدًا لهذا أبدًا .. أبدًا ..

* * *

٤ - شيرويت ..

ـ ومن قال إننى هنا بصفتى الصحفية ؟!

قلتها على حين غرة ، فاحتقن وجه (رفقى) الذى لم يتوقع ردًا كهذا ، ولم أنظر نحو (هشام) ، لكنه بهت لما قلت بالتأكيد !

ران صمت بليغ ، قطعه (رفقى) سائلاً فى ضيق :

ـ بأى صفة إذن ؟!

هل ستسعفنى لباقتى هذه المـرة ؟! لا أدرى .. فقـد كنـت حاضرة بصفتى الصـحفية فعلاً ، لِيَمُنَّ علىَّ اللّٰه بمهـارة حسن التصرف ..

ـ إنها .. إنها صفة ودية بحتة !

نصف ضحكـة ساخرة بترهـا (رفقى) بسرعة ، ثم كـرر ما قلت فى استهجان :

ـ ودية ؟!

تنحنح (هشـام) واكتست بشرته باحمرار خجول ، وقد أيقن أننى وضعتـه فى مأزق لـن نستطيع الفكاك منـه ، فتلعثم وهو يحاول أن يقول :

- إنها .. إنها تـ .. تعنى ..

هززت كتفى قائلة فى بساطة أجهل مصدرها حتى الآن :

- أعنى أننى أعرف صاحب قصاصة الورق التى عثرت عليها فى خزانتك المسروقة ..

- تلك المزحة السخيفة ؟!

- ليست مجرد مزحة ، إنه شخص حقيقى تعاملت معه فى قضية سابقة ..

أسرع (هشام) يؤيدنى ، وقد أدرك الحيلة التى أؤديها ، قائلاً :

- هذا صحيح ..

عقد (رفقى) ساعديه أمام صدره قائلاً فى تحد :

- فليكن .. ماذا أستطيع أن أفعل لكما الآن ؟!

قلت فى رصانة :

- سألقى عليك بعض الأسئلة ..

- بصفة ودية ؟!

هززت رأسى بالإيجاب ، فأعطانا ظهره وهو يقول :

- أعتذر ، فليس لدى ما يكفى من الوقت ..

وانطلق عائدًا من حيث أتى ، معلنًا - فى غير حاجة للكلمات - أن زيارتنا له قد انتهت ..

- سيد (رفقى) ..

توقف إثر نداء (هشام) ، واستدار فى حدة نمّت عن نفاد صبر ، فاقترب منه (هشام) ودنا بوجهه منه قائلاً فى صوت هامس لا أكاد أسمعه :

- ستكون ذات فائدة عظيمة للإيقاع بالسارق ، إنها الوحيدة التى حادثته ورأته من قبل ، ولو كانت الصفة الودية عملة غير قابلة للتداول ، فاعتبرها صفة رسمية بحتة ، فى إطار ودى .. هل الأمر هكذا أكثر وضوحًا ؟!

كان همسًا صارمًا لا يشوبه لين أو رجاء ، أنا شخصيًا شعرت بالخوف للهجة (هشام) فما بالكم بـ (رفقى) ؟!

لقد زفر فى ضيق ، ونقل بصره بين وجه (هشام) ووجهى ، ثم أشار لنا قائلاً :

- حسن .. تفضلا معى ..

وغمرنا هواء المكيف البارد ونحن ندلف إلى الحجرة الصغيرة الملحقة بالمعرض ، والتى لا تحوى سوى مكتب أنيق ، وبضعة مقاعد متناثرة ، وتلك الخزانة المعدنية العملاقة .. كانت

مساحتها تحتل ربع مساحة الغرفة تقريبًا ، وطولها يجاوز المترين ، ومظهرها بوجه عام يشى بقدمها وأصالتها ، وقوتها المهولة ..

ـ عذرًا ، فالموظفة التى تعمل هنا لا تأتى إلا فى السادسة ، ولن أستطيع تقديم (الواجب) !

تذكرت وقتها أن أنظر فى الساعة ، جيد ، إنها لم تتجاوز الرابعة بعد ..

قال (هشام) وهو يجلس فوق أحد المقاعد الوثيرة اللامعة :

ـ لا عليك ، ولكن بخصوص الموظفة ، ما اسمها ؟!

ـ (فاتن جاد) ..

ـ إنك لم تتهمها فى المحاضر الرسمية ، برغم أننا عادة نوجه أصابع الاتهام نحو العاملين فى مكان الحادث أولاً ..

أخذت أصابع (رفقى) تدق سطح المكتب فى إيقاع منتظم وهو يقول محاولاً الحفاظ على الحد الأدنى من اللياقة فى حديثه معنا :

ـ هذا صحيح ، لكنها فتاة بسيطة بعيدة كل البعد عن مكتبى هذا ، كل مهمتها تتلخص فى تنظيف التحف والمعروضات يوميًا كل مساء ، إنها حتى لا تعرف شيئًا عن قيمة ما تنظفه ، بل إننى أشك أنها ستعرف قيمة حجر (عين القط) لو وقع فى يدها صدفة !

واستطرد قائلاً :

ـ ثم إن مفتاحى المكتب والخزانة ليس لهما أى نسخ إضافية ، وكما لاحظ ضباط الشرطة ووكيل النيابة ، فلا أثر لأى محاولة عنيفة فى كل ما حدث .. أضف إلى هذا أرقام الخزانة التسعة التى لا يعرفها سواى ..

سألته أنا :

ـ ألا يحتمل أن تكون الفتاة ..

قاطعنى بقوله :

ـ إن سلسلة المفاتيح لا تغادر جيوبى مطلقًا ، واحتمال نسيانى لباب المكتب أو الخزانة مفتوحًا يكاد يقارب الصفر فى المائة ..

وكأنه يقول لى : لا داعى للتذاكى أيتها الصغيرة الحمقاء !

لكنى ـ كعادتى كلما حاولت أن أبدو مستفزة ـ تجاهلت هذا الأمر تمامًا ، وسألته وأنا أحاول إشعاره بأهمية وجودى :

ـ من تتوقع أن يكون السيد (س) هذا ؟!

هز كتفيه قائلاً ، وهو يرسم بسمة لا معنى لها فوق شفتيه :

ـ ليس هذا عملى ، إنه سبب مجيئك إلى هنا ـ بصفة ودية ـ كما أخبرتنى !

هذا الرجل يريد صرفنا الآن ـ وبمنتهى الذوق الذى لولاه لكَنَسَنَا كنسًا ـ ولكن لماذا ؟! سؤال جيد !

قل لى يا سيد (رفقى) ، هل تعرف أحدًا يبدأ اسمه بحرف السين ؟!

ضحك ضحكة عصبية عالية ، ثم التقط دفترًا صغيرًا له لون أخضر قذفه فوق سطح المكتب ناحيتى وهو يقول :

ـ هذا سجل الهواتف الخاص بى ، ستجدين فيه عشرات ممن يحملون السين كحرف أول من الاسم !

هل يتظاهر بالغباء ؟! أم أن سؤالى كان مبهمًا إلى هذا الحد ؟!

ـ أعنى هل تشك فى أحدهم بالتحديد ؟!

قال فى لا مبالاة واضحة :

ـ لقد ألقيت بشكوكى كلها أمام الشرطة ..

ثم رمق (هشام) بنظرة ذات مغزى ، تجاهلها الأخير ، أو أنه ابتلعها بكل روح رياضية .. وفى تراجع تكتيكى مدروس صمت للحظة ، واعتدلت فى مجلسى متظاهرة بأننى سأنهض ، واستعد (رفقى) لتشييعنا بكل امتنان ، إلا أننى هاجمت من جديد فى حركة مخادعة غير متوقعة :

ـ حدثنى عن (عين القط) !

برزت عظام فكه دليلاً على أنه ضغط أسنانه بقوة ، وألقى نظرة خاطفة على ساعة المكتب أمامه ، هذا الرجل ينتظر شيئًا ما ، لا يريد أن نعرفه ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

ولما لم يجد فائدة من محاولات صرفنا ، تراجع بظهره ، وانطلق يقول :

ـ إنه حجر كريم نادر من فصيلة (الأوبال) ، يتميز بنقائه الشديد ، وألوانه الداكنة التى يفصلها خط بارز ، مما يجعلها أشبه بعين القط الحقيقية ، ولم يتم اكتشاف هذا الحجر واستخراجه إلا مؤخرًا فى مناجم البرازيل ، ربما مع نهايات القرن الماضى أو بدايات الحالى ..

هذا باختصار دون الدخول فى تفاصيل لا يفهمها سوى المختصون ..

صمت راسمًا ابتسامة سمجة مفادها أن هذا كل شىء ، لكن (هشام) سأله :

ـ ومن أين حصلت عليه ، سيد (رفقى) ؟!

ـ اشتريته من السيدة (شيرويت) ..

وقبل أن أسأله عن هوية السيدة ، انطلق يستطرد بسرعة :

ـ إنها عجوز تجاوزت منتصف الستين ، حفيدة إحدى الأسر العريقة ، تعيش وحيدة فى قصر كبير بحى (جاردن سيتى) ، ومازالت تحيا بين أروقة ذكريات العز الغابر، حتى إنها مازالت تصر على أن يناديها من يعرفونها باسمها مشفوعًا بلقب (هانم) !

وهى بلا مورد للرزق ، وليس لها أى مصدر دخل سوى بيع أحد مقتنياتها الثمينة ـ التى ورثتها عن أجدادها ـ كلما احتاجت للنقود ، وآخر ما باعته لى كان هذا الحجر ، وصدقونى هذا كل ما أعرفه بهذا الشأن !

سأله (هشام) :

ـ وهل تطرق إليك الشك ـ ولو للحظة ـ فى هذه السيدة ؟! أعنى ربما حاولت استرداد هذا الحجر بالذات عن طريق لص محترف أو ..

ـ ربما .. هذا عملكم !!

عند هذه النقطة أدرك (هشام) أن الطريق مع هذا الرجل مسدود .. مسدود ، فنظر إلى بطرف عينه ، نظرة فهمت منها أننا يجب أن نترك هذا الرجل قبل أن ينفجر غيظًا وكمدًا ، لكننى ـ وبحسى الصحفى ـ عدت أسأل :

ـ هل لديك عنوان هذه السيدة ، سيد (رفقى) ؟!

وفى لمح البصر ، استل قلمه وشرع يخط العنوان فوق ورقة بيضاء ، سارع يعطينى إياها وهو يقول :

ـ ها هو ذا .. شرفتما مكتبى المتواضع بالحضور ..

وشيعنا ـ أنا و (هشام) ـ حتى بوابة الـ (جاليرى) ، فى نفس اللحظة التى رأيت فيها شابًا أنيقًا يقف أمامنا وفى يده حقيبة سوداء سائلاً :

ـ هل الأستاذ (رفقى حسان) موجود ؟!

ارتبك (رفقى) ، وسال خط من العرق على صدغه الأيمن ، وازدرد ريقه فى صوت مسموع ثم أجاب :

ـ أنا هو !

اعتدل الشاب فى وقفته ، قائلاً فى لهجة عملية لم تخل من بسمة مصطنعة :

ـ وأنا مندوب شركة التأمين ، إن بيننا ميعاد سابق ، ولكننى أعتذر عن التأخير !

هذا إذن ما كان (رفقى) يخشى أن نراه .. التأمين ..



وفى لمح البصر ، استل قلمه وشرع يخط العنوان فوق ورقة بيضاء ، سارع يعطينى إياها وهو يقول : ـ ها هو ذا ....

تبادلت مع (هشام) نظرة فهمها كل منا على الفور ، بينما امتدت يد (رفقى) تمسح العرق عن صدغه وجبهته ، وقد أدرك الآن إلى أى مدى تبلغ صعوبة موقفه .. لقد انكشف ما كان يحرص على إخفائه ..

وأصبح موقفه فى غاية الحرج ..

والدقة ..



٥ - زيارة ليلية ..

أيها التأمين ، كم من الجرائم ترتكب باسمك !

هل فعلها (رفقى حسان) حقًا ، وأخفى (عين القط) ثم ادعى سرقته للحصول على قيمة التأمين ؟!

أم هل فعلتها (فاتن جادْ) الموظفة البسيطة التى لم أرها حتى هذه اللحظة ؟! أم تكون (شيرويت) - هى الأخرى لم أرها - قد آثرت استعادة تراث أسرتها الضائع ؟! أم يكون الأمر خاصًا بمحترف سرقة بعيدًا عن كل هؤلاء ؟!

مهما يكن الأمر ، فما زال وجود إمضاء السيد (س) فى مكان الجريمة بلا تفسير ..

هل سيتصل بى ؟! هل عرف أننى تدخلت فى الموضوع ؟! هل هو موجود أصلاً ؟!

نفس الدائرة المفرغة التى تعود بى إلى نقطة البداية - النهاية ، فلا نهاية ولا بداية - كما تعلم - فى الخط الدائرى ..

إنها أبسط قواعد الرياضيات !

الهاتف صامت كالزرافة !

والمذاكرة حلم مستحيل ..

والقراءة أو التلفزيون لا يساعدان إلا على المزيد من تشتيت الذهن ..

أحتاج لنقطة بداية ، هكذا يفكر (هولمز) دائمًا !

- صغيرتى شاردة الذهن كالمعتاد ..

لقد عاد أبى ، هذا رائع !

- إنك حتى لم تسمعى طرقاتى على باب حجرتك ..

عذرًا يا والدى العزيز ، إنها قضية معقدة للغاية ..

عقد حاجبيه قائلاً فى دعابة :

- هل تعملين فى الشرطة من وراء ظهرى ؟!

- الصحافة أصعب من الشرطة بمراحل ..

- حسن ، أقترح أن تخفى هذا الرأى عن (هشام) !

- ابنتك صريحة كالغزل الجاهلى ، كما تعلم ..

- يا له من شرطى مسكين !

دعاباتنا لا تنتهى كالمعتاد ، ولكن الجد يفرض نفسه فى النهاية ، قلت :

- أحتاج شيئًا ما يا والدى الحبيب ..

- مُرينى ..

الدلال الطفولى اخترعوه لهذه المواقف ..

- عدنى بالموافقة ..

- لن أتأخر لو أستطيع ..

أحتاج لسيارتك فى مهمة صحفية ليلية ..

- ولكن ..

- سأوصلك للعمل فى الثامنة ، ثم أعود لأخذك وقتما تنتهى ..

- ....

- أرجوك ..

رفع رايته البيضاء أخيرًا ، بقوله :

- وهل أمامى سوى الموافقة ؟!

احتضنته هاتفة :

- أشكرك يا أوسم أب فى الدنيا !

سألنى فى اهتمام توقعته :

- ولكن ، أين ستذهبين بها ؟!

برقت عيناى وأنا أقول :

- إلى (جاردن سيتى) ..

ولم يفهم بالتأكيد سر حماستى الملتهبة ، خاصة وأننى أنا الأخرى لم أفهمها !

* * *

لم تعد (جاردن سيتى) ضاحية الأثرياء والهوانم والباشوات ذوى الطرابيش الحمراء والحلل الفاخرة والساعات (الكاتينة) ، بل أصبحت اليوم موقع السفارة الأمريكية ، ومعاهد اللغات والحاسب الآلى ، ومحلات السوبر ماركت وبائعى الخضر والفاكهة !

دورة الزمان الأبدية ..

لكنها مع هذا ما زالت تحتفظ بشىء من رونق عصرها الذهبى ، بقايا عطر لم يزل ساكنًا قلب زهرة ذابلة ، يضوع فى الأجواء برغم الأزمنة المنصرمة ، وأحزان النهاية ، و (ارحموا عزيز قوم ذل) !

ها هى ذى شوارع (جاردن سيتى) ليلاً ، الهدوء ، النظافة ، الأضواء البرتقالية التى تلقيها أعمدة الإنارة فيلتمع أسفلت الشوارع ، الأشجار الضخمة الملقية بفروعها الوارفة فوق رأسى لأبدو مثل (جاليفر) فى بلاد العمالقة ، البيوت القديمة المظلمة الصامتة ، كأنها مسكونة بالرعب والأشباح ..

جو مثالى لفيلم رعب من الدرجة الأولى ، نراه ونحن فى الفراش ، متأهبين تماماً للاندساس تحت الأغطية عندما يفاجئنا ظهور مصاص الدماء ونحن نشهق .. !

ها هى ذى غايتى المنشودة ، قصر السيدة (شيرويت) ..

٥٠ شارع المعز ..

أوقفت السيارة عند أول الشارع ، فالشوارع هنا ضيقة ، والعثور على مكان مناسب لتربض فيه سيارتك مسألة حظ أو شطارة ، ولما لم أكن متأكدة من الأمر الأول ، فضلت الاعتماد على الثانى ، والاتكال على اللّه ..

القصر غارق فى الظلام ، لا يوحى بوجود مخلوق حى ، ولا حتى (صريخ ابن يومين) !

ولكن ..

البوابة الحديدية مفتوحة !

لم تكن مفتوحة على مصراعيها طبعًا ، لكنها استجابت لأول دفعة من يدى ، ترى ألا يخشى أحد هنا من اللصوص ؟! أو حتى المتطفلين ؟!

لو كانت (رحاب) ـ صديقتى ـ معى لهتفت كما تهتف دائمًا :

ـ احذرى ، هذه هى البداية التقليدية لأفلام الرعب !

كل ما فى الحياة بالنسبة لـ (رحاب) يصلح بداية تقليدية لفيلم رعب ، وهى بالمناسبة تعشق (برام ستوكر) و (ادرجار آلان بو) وكل من يشاركون منذ الأزل فى عزف سيمفونية الرعب الأبدية ، نهاية بـ (رفعت اسماعيل) !

عذرًا لثرثرتى ، أعلم أنها تقطع حبال أفكاركم وربما تفسد جو الإثارة فيما أروى ، لكنها إحدى خصال النساء السيئة منذ خلف اللّه الأرض ومن عليها ، وليس بوسعى تغييرها ، كما ليس بوسع أى مخلوق أن يفعل ..

وهأنذا أواصل معكم ما انقطع ..

لقد اندفعت أجتاز البوابة دون تردد ، الشجاعة الحقيقية هى ألا تفكر أبدًا فى التراجع ، ثم ، لم يكن هناك أى جرس ، ولم أر أى خفير ، لم يكن أمامى إلا الدخول وطرق الباب الداخلى بعد اجتياز الحديقة الواسعة ..

أقول (حديقة) باعتبار ما كان ، صحيح أن الظلام يكسو كل شىء بعباءة سوداء ، لكن بقايا الضوء المتسرب من الخارج تفى بالغرض ، وتوضح أننى أمشى وسط أطلال حديقة كانت غنّاء فى سالف الأيام ..

أدوس بقدمى فوق الحشائش الطويلة الذابلة ، تنطبع فى عينى صور الجذوع التى اصفرت أوراقها وتساقطت تاركة إياها

للجفاف ، والشيخوخة ، ثم أكوام من معدات (البستنة) التى زحف التراب والصدأ فوقها ، وفى الخلفية أصوات حشرات الليل التى تصفر بلا انقطاع ..

أواصل السير الحثيث نحو هدف أراه بصعوبة ، بوابة القصر الخشبية الهائلة المخيفة المطلة من أعلى ، حيث تصعد نحوها درجات حجرية كثيرة ..

أحرقت خلفى كل زوارق خوفى وجبنى ، واندفعت - برياح الفضول العاصفة - أهرول فوق الدرجات الصاعدة ، وكل ما يستحوذ على تفكيرى هو لهفتى للوصول إلى مبتغاى ، لا بد أن أرى هذه السيدة العجوز ، التى تقضى ما بقى لها من أيام وحيدة فى قصر من دورين ، لا يحرسه أحد ، ولا تبدو خلاله أى مظاهر للحياة ، فى مناخ لا يبعث فى الأعماق سوى ذكرى القبور ..

انطلقت أهرول ، وأنا مدفوعة بفضولى الثنائى القوة ، فأولاً أنا فتاة ، والفتيات هن من ابتدعن الفضول ، وثانيًا - وهو الأهم - أنا صحفية ، وصحفى بلا فضول كعين بلا بؤبؤ !

لكنى - كما قال (نزار قبانى) - لم أكن أعرف خاتمتى ، ولو أنى أعرف خاتمتى ما كنت بدأت ! فقد تسمرت ، كبطل إغريقى نظر فى عينى (ميدوسا) للحظة ، ثم انطلقت من حلقى تلك الصرخة الحادة المجلجلة ، الكفيلة بإيقاظ (القاهرة) كلها ..

تسألوننى لماذا ؟!

إنها - بالطبع - تلك القطط التى برزت أمام الباب !

خمس أو ست قطط ، لا أذكر تحديدًا ، كل ما أذكره هو ذلك الرعب المهول الذى اكتسح وجدانى ، وجعلنى أطلق صيحة لا تقل حدة عن صفارة إنذار دقت إبان غارة جوية فى أثناء الحرب العالمية الثانية !

أما زلتم تسألون لماذا ؟!

هل نسيتم كرهى الشديد ، لهذه المخلوقات ذات الشوارب ، والمخالب ، والعيون اللامعة ؟!

* * *

٦ - ذكريات

ثم أضاء المكان فجأة !

ـ من ؟!

الصوت آت من أعلى ، وأنا محاصرة تمامًا بمجموعة أخرى من القطط تقف متربصة على السلم ، من أين جاءت ؟! لا أدرى ، ربما عبرت فوقها دون أن أشعر ..

تبًا لفضولى المقيت !

ثم إن الإضاءة المفاجئة أصابتنى بعمى مؤقت تبددت خلاله تفاصيل الموجودات من حولى ، لكنى ـ برغم هذا ـ استطعت تمييز صوت العجائز المشروخ الذى عاد يسأل :

ـ من هناك ؟!

لم أقو على الرد ، لم أقو حتى على رفع رأسى نحو مصدر الصوت ، كان خوفى أكبر منى ، وهلعى بلا نهاية ، ولا حدود ..

إن هذه المخلوقات الشنيعة لا تخاف ممن يخافها ، بل تتقدم نحوه فى ثبات إمعانًا فى إثارة رعبه ، وتلذذًا بتعذيبه فيما يشبه السادية ، أو هو السادية نفسها ..

شهقت ـ وكدت أصرخ من جديد ـ عندما لامس شعر أحدها ساقى .. ولكن ..

ـ لا بد أنه متطفل آخر يا سيدتى !

صوت فتاة صغيرة يتردد فى هذا القبر المسكون بالقطط ؟! يا للعجب !

هنا رفعت رأسى لأعلى ، نحو تلك الشرفة التى تطل مباشرة على بوابة القصر ، لتتراءى لى صورتان سوداوان من السلويت ، لا تظهر منهما إلا تفاصيل شبحية ..

هذا الشبح القصير هو العجوز الشمطاء بكل تأكيد ، فهذا الاكتناز ، وذلك الرأس ذو الحجم المهول ـ ربما بفعل جمّة تضعها العجوز فوق رأسها ، ولمعان المنظار الطبى ، كل هذا لا يدل إلا على كونه كذلك !

وهذا الشبح ذو القوام النسائى المتناسق ، والشعر المعقوص من الخلف الذى يتفقون على تسميته بـ (ذيل الحصان) ، والثوب المنزلى القصير ، لا يمكن أن يكون إلا لفتاة لم تتجاوز العقد الثانى من عمرها !

ـ ولماذا يصرخ المتطفلون هكذا ؟!

سألت العجوز ، فالتفت نحوها ظل الفتاة قائلاً :

ـ يبدو أنها خافت من القطط !

ـ أهى امرأة ؟!

هزت الفتاة رأسها ، فعادت العجوز تسأل بصوتها الحاد الرفيع :

ـ كيف ؟!

وانتبهت إلى وجود ظل ثالث ، فى الغالب هو لقط سمين ، يستند بساقيه الأماميتين فوق سور الشرفة ، ويقف بجوار العجوز التى امتدت يدها مداعبة ظهره وهى تضيف :

ـ كيف تخاف من كائنات وديعة كهذه ؟!

ـ النجدة ، أنقذونى ..

صرخت وأنا أوشك على البكاء ، عندما اختفت الأشباح السوداء من الشرفة العلوية ، تاركة إياى أسائل نفسى : هل سينقذوننى من براثن هذه الكائنات المرعبة ؟! أم سيتركوننى لمواجهة مصيرى منفردة ، عقابًا لى على اقتحام القصر بلا استئذان ؟!

استعدت أحبالى الصوتية لإطلاق صيحة الرعب الثانية ، عندما ..

* * *

أعلم أنكم تضحكون منى الآن ، بعضكم فى سره ، والآخر جهرًا !

أعلم هذا تمامًا ، وربما تمادى البعض فوصفنى بالتدليل الزائد ، أو بكونى فتاة (فافى) تتحدث عن القطط ومواجهتها لها كأنها السندباد يروى مغامراته مع طائر الرخ ! وأنا لست فى مجال الدفاع عن نفسى ، أو فلنقل إنى أجد عباءة المحاماة أوسع منى ، لكنى فقط أتحدث عن الخوف الإنسانى المهول من اللاشىء ، ذلك الخوف الذى يسكننا جميعًا كبشر عاديين ..

كم من الآنسات اللاتى يضحكن الآن يخفن من مجرد ذكر لفظة (فأر) ؟! برغم أنه فى حقيقته مخلوق صغير لا حول له ولا قوة ..

وكم من الصبيان الذين ينظرون لى شذرًا فى سخرية غير خافية يركضون كالظباء عند مقابلة كلب فى الظلام ؟! برغم أن الكلب وفىّ ، بل ويخاف من البشر كذلك !

إنه الخوف ، الذى يسكننا جميعًا ، كجزء من غريزة البقاء وحب الحياة ..

لكنه سيظل أبدًا ، وفى كثير من الأحايين ، بلا تفسير ، كسائر المشاعر الإنسانية !

* * *

عندما انفتح باب القصر الخشبى العالى !

إنها النجدة إذن ! حمدًا لله ..

ها هى ذى الفتاة الصغيرة ذات الشعر المعقوص تقترب منى ، تمسك بذراعى وتهش القطط من حولى ، قائلة فى بسمة أرادت بها أن تطمئننى :

ـ لا تخافى ، إنها غير مؤذية بالمرة !

لم أجد فى نفسى المضطربة القدرة على الرد ، لقد كان صوت نبضات قلبى المرتعد فرقًا أعلى من كل ما سواه ..

أما القطط فقد تكومت فى ركن قصى ، مطلقة مواءها الذى قد يبدو عذبًا للبعض ، لكنه بالنسبة لى لا يقل إرعابًا عن صوت أسد يزأر ، أو قل تنين يصرخ !

جذبتنى يد الفتاة نحو الداخل ، وانغلق الباب من خلفنا ، إن الإضاءة فى الداخل شحيحة للغاية ، لكنها كافية للرؤية على كل حال .. وانطلقنا عبر أروقة القصر ، والاضطراب ـ الناجم عن الهلع ـ فى داخلى يهدأ نوعًا ، برغم ..

إن القطط فى كل مكان هنا !

شهقت لمرأى أحدها فوق عمود من الرخام بجوار كتفى مباشرة ، لكن الفتاة أسرعت بتهدئتى قائلة :

ـ لا عليك ، إنه تمثال من الجرانيت !

ـ حقًا ؟!

هناك تماثيل أخرى متناثرة عبر المكان ، ولوحات لا تحصى معلقة فوق الجدران لقطط تلهو بكرات الصوف ، وأخرى ذاهلة شاخصة بعيونها الملونة المستديرة نحو المجهول ، ثم ..

المكان برمته قطعة من تاريخ اندثر ، لم يعد موجودًا إلا فى ذاكرة الأفلام السينمائية التى تعود تواريخ عرضها للثلاثينات والأربعينات ، وربما قبل ذلك بزمن !

التحف ، الأثاث من مقاعد وطاولات ، ذلك الفونوغراف فى الركن ، الدرج العريض الذى يحتل صدر القاعة الرئيسية ليتفرق إلى فرعين بالأعلى ، إنه زمن تمنيت يومًا ـ وأنا أعيش فى نبرات (ليلى مراد) الساحرة أو وسامة (محمد فوزى) وخفة دمه ـ أن أعيشه ، وهأنذا فى قلب الماضى ، أعيشه كأنه حقيقة !

صعدت الفتاة الدرج ، وكان لابد أن أصعد خلفها ..

ـ إلى أين ؟!

ما زالت نبراتى مرتعدة مضطربة إثر تجربتى الرهيبة ..

ـ السيدة (شيرويت) هانم تود مقابلتك ..

أنا أعرف السيدة (شيرويت) ، لكنى لا أعرفك يا فتاة !

أردت سؤالها عن هويتها وعن سبب وجودها فى هذا القبر المحفوف بالقطط وغبار الماضى ، لكنى قبل أن أستجمع شجاعتى وأجد العبارات المناسبة ، وجدتها تشير نحو مدخل إحدى الغرف قائلة :

ـ تفضلى بالدخول ..

نظرت لها ، فقالت قبل أن أسألها :

ـ إنها تريدك وحدك !

اشتعل ـ فجأة ـ فضولى الصحفى ، وقد غذت تجربتى ووصولى إلى هذا الحد أواره ، فاندفعت إلى الداخل دون مناقشة ..

كانت غرفة نوم من نفس الطراز العتيق، سرير نحاسى ذو قوائم مرتفعة ، وستائر شفافة منسدلة ، وبعض مقاعد من (الأرابيسك) تجلس السيدة (شيرويت) فوق أحدها ، بينما يتمدد ذلك القط السمين فوق المقعد المجاور لها فى كسل ..

هذه هى الغرفة المطلة على المدخل ، وهذه الشرفة هناك هى التى أطلُّوا منها علىّ !

ـ من أنت يا فتاة ؟!

برغم نبرة الصوت الرفيعة المتقطعة التى تشبه صوت الساحرات الشريرات فى أفلام (والت ديزنى) ، وذلك الشعر الرمادى الأشبه بقبعة هائلة الحجم ، وتلك العوينات الطبية المنزلقة فوق الأنف والمشابهة لتلك التى تنزلق فوق أنف السيدة (ألفت) رئيسة التحرير، برغم كل هذا ، فملامح السيدة (شيرويت) ـ بعكس ما رسمتها ريشة خيالى ـ طفولية للغاية ، يطلق عليها محبو الرطان (بيبى فيس Baby Face) ، إنها تلك الملامح التى تدل فى وضوح على جمال باهر فى مرحلة الشباب ، ما زالت آثاره تقاوم فعل الزمن وغزو التجاعيد .. وهو جمال رقيق ، لا ينم إلا عن طيبة مفرطة ، وحنان مستتر ، إنه الجمال الذى يدخل قلبك بعد النظرة الأولى مباشرة !

قبل أن أجيب ، أردفت قائلة :

ـ تبدين بنت أصول ..

قلت محاولة الحفاظ على صوتى من التذبذب :

ـ اسمى (نسرين) ، وأعمل صحفية فى ..

قاطعتنى بنصف ضحكة ، تبعتها بقولها هاتفة :

ـ صحفية ؟! غير معقول !

هل أخطأت بإخبارها ؟! لا أظن .. إنها صفة مقبولة تمامًا لحضورى إلى هنا ..

ـ وما الذى أغرى صحفية مثلك بالحضور إلى هنا ؟!

ـ ألم تعلمى بعد ؟!

ـ أعلم ماذا ؟!

إنها حقًا لا تدرى ، أو هكذا يبدو على الأقل ، وبمنتهى الوضوح والمباشرة والاقتضاب ورباطة الجأش قلت :

ـ (عين القط) لقد سرقت أمس !

من يلقى بقنبلة لابد وأن يتوقع الانفجار ، لكنه يدهش حقًا إن كان رد الفعل هو الصمت والحملقة فى ملامحه !

هذا ما فعلته السيدة (شيرويت) !

ظلت صامتة كصخرة ، ولم تش ملامحها بأى انفعال .. لا الدهشة ولا الحزن ولا السعادة ولا حتى عدم الاكتراث ..

ـ يا (تحية) .. (تحية) ..

أخيرًا حطم هذا النداء جدار الصمت ، وعندما اندفعت الفتاة الصغيرة الواقفة بالخارج على إثره ، علمت أن هذا هو اسمها ..

ـ نعم يا سيدتى ..

ـ احملى (أصيل) بك للنوم ، إنه متعب كما ترين ..

ولم أكن فى حاجة للعبقرية حتى أدرك أن (أصيل) بك هذا هو القط السمين ، لكنى كنت فى حاجة للدهشة عندما رأيت (تحية) الصغيرة تحمله بذراعيها الرفيعتين نحو الخارج ، مغلقة الباب خلفها ..

ثم الصمت مرة أخرى ..

ـ إذن فقد سرقت من (رفيق) ..

ـ لعلك تقصدين (رفقى حسان) ، سيدة (شيرويت) ..

لم تنتبه لقولى ، فغمغمت كالمحدثة نفسها :

ـ يا له من أحمق !

ونهضت فى صعوبة ، وكدت أندفع لأسندها لولا أن لاحظت تلك العصا العاجية التى تتكئ عليها .. ثم اتجهت نحوى بخطوات متثاقلة يُدوى معها وقع العصا فوق الأرض الخشبية التى يطلقون عليها (باركيه) ..

قلت وأنا أعلم مدى سخافة ما أقول :

ـ إنك صاحبة الحجر على حد علمى ..

هزت رأسها نفيًا وهى تقف على مقربة منى ، مما جعل تفاصيل سحنتها الصافية تبدو واضحة المعالم تمامًا بالنسبة لى ، وفجأة ، رفعت عصاها فى وجهى قائلة :



ولم أكن فى حاجة للعبقرية حتى أدرك أن (أصيل) بك هذا هو القط السمين ، لكنى كنت فى حاجة للدهشة عندما رأيت (تحية) الصغيرة تحمله بذراعيها الرفيعتين نحو الخارج ..

- كلا .. إنه لا يخصنى أنا ..

لم أكن أنا المقصود بحركة رفع العصا هذه ، وإنما كانت تشير إلى نقطة ما خلف ظَهْرى ..

- إنه ملك لـ (روحية) هانم .. جدتى لأبى ..

والتفت ، لأرى صفين من الصور العتيقة ذات البراويز المذهبة المعلقة فوق الحائط ، وفى الركن العلوى الأيسر من كل صورة ، هناك شريط أسود لا يحمل سوى دلالة واحدة هى أوضح من أن أفسرها ..

كانت تشير إلى صورة بعينها ، لامرأة - بمقاييس الجمال فى عصرنا الحالى - متوسطة الملاحة ، لكن شيئًا ما - لم أدر كنهه - أنبأنى بكونها تخفى قصة تتناسب مع أناقتها وزينتها والجدية الممزوجة بلمحة الحزن فى عينيها ..

ولم تخطىء توقعاتى ، فقد تابعت السيدة (شيرويت) :

- وقد دَفَعَت فى هذا الحجر ثمنًا باهظًا ..

- هذا مفهوم ، فالحجر الكريم يكون دومًا باهظ الثمن ..

أضافت والدموع تلمع فى عينيها الضيقتين الغائرتين :

- لقد دفعت فيه حياتها نفسها !

* * *

٧ ـ تساؤلات ..

جلست السيدة (شيرويت) فوق مقعدها الأرابيسك ، وانطلقت تروى :

ـ (روحية) هانم كانت زهرة عائلة (المناديلى) ذات التاريخ العريق والجذور التركية ، كان جمالها يخلب الألباب ، وروحها النقية الشفافة تشع نورًا وطهرًا على كل من يعرفونها ، وكالعادة كثر خاطبوها من أعيان وباشوات وبكوات ، ممن أسرت فتنتها الداخلية والخارجية قلوبهم ، فرأى (عاصم بك المناديلى) بعين رجل المال والمتطلع نحو النفوذ والسلطة أن ابنته (روحية) صفقة لا بد من استثمارها على النحو الأمثل ، وظل يقارن ويفاضل بين الخاطبين ليرى أيهم سيحقق طموحاته ويبلغه مآربه أسرع وأسهل ..

صمتت لبرهة ، رمقت خلالها عينيها تتأمل صورة جدتها ، وكأنها تغوص فيها ، حتى استأنفت :

ـ لكن القدر كان يخبئ لـ (روحية) هانم جراحًا ثلاثة .. ففى هذه الأثناء كانت (روحية) هانم تهوى (شوكت) ..

و (شوكت الدرمللى) كان فتى عابثًا ، لاهيًا ، يقضى جل أوقاته فى صالات المراقص والمقامرة ، والعجيب أنها وقعت فى هواه بعد اللقاء الأول مباشرة ، فى إحدى حفلات الطبقة الراقية الخيرية آنذاك ، وأحس هو ـ بخبرته فى التعامل مع الجنس اللطيف ـ بهذا الهوى ، فألقى بشباكه حولها أكثر وأكثر ، حتى جاءها فى أحد الأيام خبر مفاده أن (شوكت) قد خطب ابنة عمه (أزهار) ..

ثم تنهدت بعمق ، مضيفة وهى تغلق جفنيها فى ألم :

ـ إن قدر القلوب النبيلة دومًا أن تحب ، فتخان ..

ثم إنها فتحت عينيها وتابعت :

ـ وكان هذا هو الجرح الأول ، جرح صامت ، هادئ ، من دون أن يشعر به أحد سوى (روحية) هانم ، لكنه خلف فى قلبها أثرًا لم تستطع الأيام أن تداويه بسهولة .. وبعد هذا بفترة وجيزة ، تم زواجها بـ (شاكر) باشا ، جدى لأبى رحمه الله ..

بالتأكيد له صورة وسط الصور المعلقة ، لكنى رأيت أنها سخافة أن أسألها عن ذلك ، خاصة وأن القصة أثارت اهتمامى بالفعل ..

ـ (شاكر) باشا كان عضوًا فى البرلمان ، وصاحب أملاك

لا تعد ولا تحصى ، لكنه كان فى عمر والدها تقريبًا ، وله من الزوجات قبلها اثنتان ، وقطيع من الأبناء ، ومع هذا كله أحبته ، وأخلصت له ، وأنجبت منه (كاظم) بك أبى رحمه الله ، وقضت أوقاتها بين انتظار زوجها مرة أو مرتين فى الأسبوع ، وبين هواية أورثتها لنسلها من بعدها ، تربية القطط !

كان لها قطٌ شيرازىٌ مقرب إلى نفسها تدعوه (أصيل) بك ، هو جد (أصيل) بك الثالث الذى أتشرف بتربيته ، ومع القطط لم تكن تشعر بالوحدة أبدًا ، حتى ...

استطعت أن أتوقع ما ستقوله .. لقد ..

- مات (شاكر) باشا فى إحدى رحلاته للعلاج بـ (باريس) .. وكان هذا هو الجرح الثانى ، لقد تركها راعيها وحيدة ، ولم تلق بالاً للميراث الذى تركه لها ، فلم يكن هذا يعنيها فى شىء ، لكنه كان يعنى الكثير لـ (عاصم) باشا ، والدها الذى انتقلت للعيش فى كنفه من جديد ، حاملة معها عائلة القطط التى تربيها .. وبالذات (أصيل) بك ..

عادت تغلق جفنيها مغمغمة :

- أرملة فى الثلاثين .. يا لها من مأساة !

ماذا حدث بعدها ؟! إن الشوق يقتلنى لأعرف ..

- ثم ظهر (ادوارد) !

كان موظفًا مرموقًا بسفارة (بريطانيا) ، وسيم ، وجيه ، يجيد العربية ، وصاحب روح مرحة وتجارب كثيرة ورحلات أكثر ومغامرات لا تحصى فى مستعمرات (بريطانيا) المنتشرة عبر قارات العالم .. فى احتفال آخر تلاقيا ، وأدى (كيوبيد) مهمته على خير وجه !

ومن تصاريف القدر ، أن (شوكت الدرمللى) وقتها كان حاضرًا ، ولم يكن هناك حديث فى الحفل إلا عن طلاقه من (أزهار) ابنة عمه لسوء سلوكه وعدم تحمله لمسئوليته كرجل ، ويبدو أنه كان بصدد البحث عن مغامرة أخرى ، ولما وقع بصره على (روحية) هانم التى زادتها الأيام بهاءً وجمالاً وسحرًا ، بالإضافة لما تناهى إلى مسامعه عن الثروة التى ورثتها عن زوجها الراحل (شاكر) باشا ، أضمر أن يعيد الكرة ويحاول وصل ما انقطع من حبال الود ..

لكن حبال الود كانت تمتد فى اتجاه آخر ، فقد رفضت (روحية) هانم كل محاولاته وصدت كل هجماته ، بينما أثمرت أشجار الحب بينها وبين (ادوارد) ، برغم كل العوائق التى تقف فى طريق تتويجه بالنهاية السعيدة ..

وعلم (شوكت) بهذا الأمر، ورأى بعينه لقاءاتهما المتكررة التى لم يكن يظللها إلا البراءة ، فأضمر فى نفسه أمرًا ، بينما ظلت الأشجار تثمر بلا نهاية بين (روحية) هانم و (ادوارد) ، حتى أهداها الأخير (عين القط) ، هذا الحجر الكريم النادر الذى أهداه إياه زعيم إحدى القبائل البدائية فى البرازيل ، إبان إحدى رحلاته إلى هناك ، خاصة وقد علم مقدار ولعها الشديد بالقطط ، وبكل ما يمت لها بصلة ..

وعندما عادت (روحية) هانم إلى القصر ، كان والدها (عاصم) باشا جالسًا مع (شوكت) فى إحدى الغرف . والأخير ينفث فى أذنه سموم الوشاية بابنته ، وعلاقتها (المشينة) بموظف السفارة البريطانية ، والتى تتحدث عنها (القاهرة) كلها !

غلى الدم - كما هو متوقع - فى عروق الباشا ، وفور تشييعه لـ (شوكت) ، صعد كالمجنون إلى غرفة ابنته ، التى كانت تحتضن (أصيل) بك فى هيام ، متأملة الحجر الكريم الذى يشبه حقًا - وإلى حد غير معقول - عين قط حقيقية .. ثم ..

صمتت ، وعادت سحابات الدمع تتجمع فى مقلتيها ، وبصعوبة تابعت :

- لقد أجهز الباشا على ابنته ، ولم يتركها إلا جثة هامدة ، و (أصيل) بك كذلك ، لقد قتلها دون إثم ارتكبته .. والقط المسكين !

أحسست أنها قاب قوسين أو أدنى من الانفجار فى البكاء ، وهى تقول :

- ماتت وهى تحتضن (عين القط) فى قبضتها !

- رباه !

ندت عنى الكلمة تأثرًا بما سمعت ، إن للسيدة (شيرويت) قدرة على أخذى لعالم منفصل عن ذاتى ، لأصبح جزءًا مما ترويه !

- فى دنيا الواقع ما هو أقسى من عالم الخيالات ألف مرة !

قالتها فى أسى وهى تكفكف دمعها الذى لم يسل ، بينما بدأت أنا فى استجماع نفسى وترتيب أفكارى ، فقلت :

- ولكن ، سيدة (شيرويت) ، إن ..

- هانم ، (شيرويت) هانم من فضلك !

ألم تنتبه إلى ندائى السابق لها بهذه الصفة ؟! يبدو هذا ، وتذكرت عندها حديث (رفقى) الذى لم يرحب بى أنا و(هشام) ..

عمومًا ليس هذا بيت القصيد ، لقد كنت أريد أن أقول :

ـ إن هذا الحجر، (شيرويت) هانم ، لأثمن من التفريط فيه !

حنت رأسها قليلاً فى انكسار ذليل ، وهى تغمغم فى حزن :

ـ الحاجة أم الاختراع يا صغيرتى ، وأنا أعيش بمفردى فى هذا القصر الضخم ، لا يشاركنى فيه إلا القطط التى تؤنس وحدتى ، والصغيرة (تحية) !

تذكرت أن أسألها :

ـ هل (تحية) خادمة لك ؟!

هزت رأسها بالإيجاب ، وفسرت قائلة :

ـ إنها ابنة وصيفتى السابقة ، التى أدركتها اللعنة فى العام الماضى ..

فى استغراب لا محدود سألت :

ـ لعنة ؟! أى لعنة ؟!

ـ لا أدرى على وجه التحديد ، لكن وفاة (حورية) هانم قد صاحبتها أسطورة شاعت بين أهل القصر أجمعهم من أسياد وخدم ، فهم يروون قصصًا كثيرة عن ظهور شبح القتيلة مرة فى العام ، حاصدًا معه روحًا تسكن القصر ..

لقد بدأت تخاريف العجائز إذن !

ـ آ آ آه ..

قلتها بنغمة عدم التصديق المتعارف عليها ، والتى تحمل كذلك نوعًا من الاستخفاف بما قالته ، فقالت بنفس ملامحها الجامدة :

ـ أنت لا تصدقين ، هذا مفهوم ، لكنى واثقة مما أقول ..

ولمعت عيناها ، وهو ليس تعبيرًا أدبيًا ، وإنما صدقونى رأيت اللمعان رأى العين ، ربما من أثر انعكاس الإضاءة ، ثم تابعت وملامحها تزداد جمودًا :

ـ لم ينج من اللعنة ـ حتى الآن ـ سواى و (تحية) ، لكنى أشعر أن وقت الظهور قد دنا للغاية ، فـ (روحية) هانم مستاءة للغاية من بيعى لحجرها الأثير ..

إنها حقًا مستاءة !

★ ★ ★

شوارع القاهرة ليلاً ـ الساعة ١١:١٣ قبل منتصف الليل ..

أحتاج لإعادة ترتيب أفكارى ، خاصة بعد يوم حافل بالأحداث كهذا .. لنرى ماذا لدينا هاهنا ..

لقد سرقت (عين القط) من جاليرى (رفقى) وعثر على بطاقة مكانها باسم السيد (س) استدل منها رجال الشرطة على احتمال كون الفاعل يسخر منهم .. لكن احتمال أن يكون (رفقى) قد أخفاها عمدًا وارد تمامًا بعد ظهور حكاية التأمين ..

هذه نقطة !

(شيرويت) هانم التى باعت الحجر الكريم لـ (رفقى) امرأة فى أرذل العمر ، تعيش وفتاة صغيرة فى قصر هو قطعة من ماض اندثر ، وتقضي وقتها فى تربية القطط ، تبدو بريئة لكن المظاهر تخدع أحيانًا ، لذا فما زال احتمال سرقتها للحجر ـ ربما بتأجير من يفعل لها ذلك ـ على سبيل استعادته وارد ، خاصة بعد تلك الخرافة التى روتها ويبدو أنها تصدقها تمامًا ، إنها خائفة من أن تغضب عليها روح (روحية) هانم فيكون فى هذا هلاكها !

هذه نقطة أخرى ..

كفتا الميزان متساويتان ، لا يوجد ما يرجح إحداهما على الأخرى ..

لذا ، فكل ما أحتاج إليه ببساطة هو المزيد من الأدلة ..

ثم .. أين السيد (س) ؟!

لماذا يتجاهلنى تمامًا هذه المرة ؟!

ومتى يظهر ظهوره المباغت المعتاد ؟!!

« يا للى ظلمتوا الحب .

وقلتو وعدتو عليه

قلتوا عليه مش عارف إيه ! »

عذرًا يا كوكب الشرق ، فبرغم إيمانى بعظمتك ـ الذى لن يزيد منها شيئًا ـ وبرغم عشق والدى الحبيب لك حتى الثمالة ، فما زالت أذنى مضبوطة على موجة (عبد الحليم) ، خاصة فى وقت أستغرق فيه فى التفكير وأنا أقود السيارة عبر الشوارع الليلية الخالية ..

أخرجت شريط التسجيل من مسجل السيارة ، وأخذت يدى تعبث بالشرائط المتناثرة فى التابلوه الأمامى ، ودون أن أنظر ، وضعت أحدها فى المسجل ، وانتظرت أن أسمع محتواه ..

ولكن .. لا شىء ..

ضغطت زر (التقديم) ، ولا شىء ..

ضغطته مرة أخرى .. ولا شىء ..

وعندما كدت أضغط الزر مرة ثالثة ، تسمرت يدى ..

لقد سمعت صوتًا ما زلت أذكره جيدًا ، برغم أننى سمعته ـ لآخر مرة ـ منذ شهر تقريبًا ..

نعم .. هو ..

صوت السيد (س) بنفسه !

* * *

٨ - عين أخرى !

- مرحبًا .. أظنك لم تنسى صوتى بعد ..

اضطربت يداى القابضتان على المقود .. إنه آخر ما كنت أتوقعه ..

- أعلم أنك لم تتوقعى هذا أبدًا ، لكنى دومًا أكون حيث لا تتوقعين ، بل وحيث لا يتوقع مخلوق ، أعتقد أنك قد وعيتى هذا جيدًا ..

لقد وعيته بالفعل ، ولكن المفاجأة كانت أكبر من قدرتى على الاحتمال والتوقع !

- ألم تتخلصى بعد من تلك الدهشة المطلة من عينيك ؟! ليس بعد ؟! فليكن .. لننتظر قليلاً !

كيف وضع الشريط فى السيارة ؟! وكيف قادتنى الصدفة وحدها إلى التقاطه ووضعه فى المسجل ؟! أم أنه أعد العدة لهذا أيضًا ؟!

ثم هزنى خاطر مجنون .. أن يكون معى فى السيارة فى هذه اللحظة بالذات ، ووجدتنى أتفرس بعينى فى المرآة العريضة التى تكشف الجزء الخلفى ، بل ووجدتنى ألتفت باحثة عن أى أثر مختف فى منطقة الأريكة الخلفية !

لكنه كان يتوقع هذا أيضًا !!

- (ضحكة تنم عن استخفاف) لا أظنك تستخفين بى لهذا الحد ! كلا .. أنا لست معك الآن إلا عبر تسجيل صوتى ، لهذا فكل ما عليك هو أن تنظرى أمامك ، وتأخذى نفسًا عميقًا ، وتقودى بمنتهى الهدوء ، ثم تسمعى ما سأقوله باهتمام شديد ..

نفذت أوامره حرفيًا ، وتحولت إلى أذنين منتظرة ما سيقوله ..

- ربما يضعنى ما سأقول فى موقف معقد قانونيًا ، ومع هذا ، فإنى أعترف لك بأن (عين القط) فى حوزتى الآن ..

هو الفاعل إذن .. لقد صدق (هشام) فى توقعه هذه المرة .. ولكن ..

- ولكن لا تنسى أبدًا أن للقط دومًا عينين !

أليس كذلك ؟!

ماذا يقصد ؟!

- ولا تنسى أن تبلغى تهنئاتى القلبية للرائد (هشام) على ذكائه الفريد ! إلى اللقاء !

ثم ساد الصمت ، فضغطت زر الإيقاف ، وحاولت جاهدة أن أسيطر على أنفاسى اللاهثة من أثر المفاجأة ...

تماسكى يا (نسرين) !

لقد ظهر السيد (س) مرة أخرى ، واختارك أنت تحديدًا من جديد ، وظهوره لا يعنى فى العادة إلا أنه سيحول مجرى التفكير فى الأحداث من النقيض للنقيض ..

لقد اعترف أنه الفاعل ، لكنها ليست نهاية القضية ، فقد ذكر - إلى جوار هذا - حقيقة علمية بديهية ، مفادها - ببساطة - أن للقط عينين !

ماذا يمكن أن يعنى هذا سوى وجود حجر آخر ؟! عين قط أخرى ؟!

ولكن ..

السيدة (شيرويت) ، عفوًا ، (شيرويت) هانم لم تذكر شيئًا كهذا فى قصتها المحزنة ، كذلك السيد (رفقى) ، و(هشام) ، ولم يدر أمر كهذا بخلدى من قبل ؟!

فما معنى ما قاله السيد (س) إذن ؟!

حجران .. لا حجر واحد ؟!

عينان للقط .. لا عين واحدة ؟!

ولِمَ لا ؟! إن ذهنى المشتت غير قادر على ربط الأمور ببعضها لتبدو لى صورة واضحة ، لكنه احتمال وارد على أى حال ..

هل أخبر (هشام) وأسأله إن كان يعرف شيئًا فى هذا الشأن ؟!

كلا .. لن أجده الآن فى المكتب أو المنزل ، ولن أستطيع - بأى حال - أن أصبر حتى الصباح لكى أسأله ، ثم من أدرانى بأنه يعلم شيئًا ما عن وجود عين أخرى أصلاً ؟!

هل أعود لـ (شيرويت) هانم وأسألها ؟!

لن يكون حلاً مجديًا ، إن مجرّد التفكير فى اللقاء بقططها مرة أخرى لكفيل بجعل فرائصى ترتعد !!

حسنًا ، إن هذا لا يدع مجالاً سوى الأخذ بالحل الأخير ..

وعلى الفور أدرت المقود نحو (جاليرى رفقى) !

صحيح أن الوقت متأخر ، لكن أبى منهك - كعادته بالتأكيد - فى عمله حتى التداعى ، ولا أعتقد أن الـ (جاليرى) قد أغلق أبوابه بعد ، برغم أن الوقت الحرج الذى تغلق فيه المحلات التجارية أبوابها قد اقترب ، لكن إطفاء فضولى الملتهب أمر يستحق المحاولة على أية حال ..

وصحيح أيضًا أن (رفقى) سيقابلنى بكل سماجة ووقاحة ، وسيغلق فى وجهى كل سبيل للحوار ، لكنى لم أكن أتوقع منه - هو بالذات - أدنى مساعدة ، ففى جنبات عقلى كان هناك اسم آخر يتردّد ..

اسم وثيق الصلة بـ (رفقى) ، ربما نجحت عن طريقه فى التقاط خيط جديد ..

(فاتن جاد) ..

* * *

كان الـ (جاليرى) مغلقًا بالفعل ، لكن الحظ لم يشأ أن يتخلى عنى وأنا فى أمس الحاجة إليه !

فعلى الطوار المقابل ، كان (رفقى حسان) يندس فى مقعد سيارته الفارهة الحمراء ، من طراز (مرسيدس) المكشوفة ، ويغلق خلفه الباب ، وبجواره تجلس فتاة رفيعة ، رقيقة الحال ، ذات ملابس متواضعة ، لا تصلح إلا أن تكون (فاتن جاد) التى أبحث عنها ..

وهكذا انطلقت خلف سيارة (رفقى) ، محافظة على بعد مناسب بين السيارتين حتى لا يلاحظ ملاحقتى له ، وأعلم أنكم تفكرون الآن فى أننى متأثرة حقًا بأفلام المطاردات الأمريكية ، لكن الاحتياط واجب !

ولم تطل ملاحقتى ، إذ هبطت (فاتن جاد) عند أول محطة أوتوبيس ، وودعها (رفقى) فى عدم اكتراث ، ثم أصدرت إطارات سيارته ذلك الصفير المميز للطلعة الأمريكانى ، وغابت سيارته عن الأنظار فى ثوانٍ معدودة ..

وحان دورى أنا ..

ترجلت عن مقعدى ، وسويت هندامى ، واتجهت نحو الفتاة الواقفة ـ وسط عدد محدود للغاية ممن ينتظرون معها فى هذا الوقت المتأخر نسبيًا آخر أوتوبيس ـ راسمة فوق شفتى ابتسامة ملائكية ..

ـ مساء الخير ..

تطلعت نحوى باستغراب ، وردت التحية فى تحفظ أفهمه وأقدره ..

ـ أنتِ (فاتن جاد) ؟!

هزت رأسها والاستغراب يتكثف كسحب صغيرة فوق قسمات وجهها النحيلة ، ولم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت ..

ـ اسمى (نسرين) !!

لم يكفها هذا التعارف ، فسألت فى حياء مشوب بخوف مبهم :

ـ أهناك شىء ما ؟!

ـ نعم .. أريد توجيه بعض الأسئلة إليك ..

ـ ومن تكونين ؟!

لو عرفت أننى صحفية لخلعت ما تنتعله وركضت خلفى حتى (أسوان) ! لا مفر إذن من استخدام الحيلة المعهودة ذات المفعول الأكيد ..



تطلعت نحوى باستغراب ، وردت التحية فى تحفظ أفهمه واقدره ..

ـ أنت (فاتن جاد) ؟!

ملت نحوها هامسة فى نبرة تحمل أمارات الخطورة :

ـ أنا أعمل فى قسم الشرطة النسائية ، بالمباحث الجنائية !

لاح شىء من عدم التصديق فى عينيها ، فما كان منى إلا أن أخرجت (كارنيه الكلية) من جيبى ولوحت به أمامها فى سرعة ، وأنا أتلفت حولى متابعة :

ـ وهذا تحقيق الشخصية الخاص بنا !

انطلت عليها الخدعة ـ كما يبدو ـ لكنها كانت فى حاجة لدفعة أخرى حتى تقتنع تمامًا :

ـ هيا معى حتى لا نلفت الأنظار إلينا ، سنركب فى سيارتى وسأوصلك إلى منزلك بنفسى ..

ـ و ... ولكنى أسكن فى (المقطم) !

ـ ليكن .. هيا معى ..

وجذبتها من ذراعها الأيمن حتى أدخلتها فى السيارة ، وبمجرد جلوسى أمام المقود انطلقت بسرعة وأنا أرسم التجهم المعهود على وجوه رجال العدالة فوق ملامحى ..

ـ ماذا تعرفين عن جريمة الأمس ؟!

ـ لقد استجوبنى رجال المباحث الجـ ..

ـ هذه ليست إجابة !

ـ حسنًا ، لقد قلت إننى لم أر شيئًا لا الأمس ولا اليوم ..

ـ وماذا عن (عين القط) ؟!

ـ لا أعرف عن هذا شيئًا ..

ـ ألم تسمعى هذا الاسم من قبل ؟!

ـ بلى ، سمعته !

ـ ممن ؟!

ـ السيد (رفقى) !

ـ متى ؟!

ـ لا أذكر ، لكن منذ زمن قريب ، ربما شهر مثلاً !

ـ وفى أية مناسبة ؟!

ـ بالصدفة ، كان يتحدث فى الهاتف مع أحد العملاء ، و ...

ـ السيدة (شيرويت) ؟!

ـ تقصدين (شيرويت) هانم ؟! كلا .. إنه لا يحادثها فى الهاتف إطلاقًا ..

ـ يبدو أنك تعرفينها جيدًا ..

ـ لقد زارتنا فى الـ (جاليرى) مرة ، مع قطها السمين ..

ـ ولماذا لا يحادثها فى الهاتف ؟!

ـ لأنها لا تملك واحدًا حسبما فهمت من حديثهما !

ـ حسنًا .. أكملى قصة محادثة الهاتف ..

ـ إن استراق السمع عادة بغيضة لى ، لكنى أذكر أن الحوار كان يتعلق بأمور بيع أو شراء .. أشياء من هذا القبيل ..

ـ ألم تسمعى (رفقى) يذكر اسم من يحادثه ؟!

ـ كلا .. لا أذكر ..

ـ وماذا أيضًا ؟!

ـ هذا كل شىء ..

ـ حدثينى عن اكتشافكم للسرقة ..

ـ لقد ذهبت اليوم صباحًا إلى الـ (جاليرى) فى الثامنة تمامًا ، موعدى المعتاد ، فوجدت السيد (رفقى) هناك ، وهو أمر لم أعتده ، إذ إننى كثيرًا ما أنتظر قدومه ربما لأكثر من ساعة ، فهو من النوع العاشق للسهر والاستيقاظ المتأخر ، وأنا فى المعتاد أنتظره خارج المحل لأنى لا أملك مفاتيح احتياطية ، وفور رؤيته لى قال إنه ذاهب لقسم الشرطة ليبلغ عن حادث سرقة ، وأن على أن أشرع فى عملى قبل قدوم القوات التى ستقلب المكان رأسًا على عقب ، وبالفعل نظفت المكان حتى جاءت قوات الشرطة ..

ـ متى ؟!

ـ فى الحادية عشرة والنصف تقريبًا !

- هل كان (رفقى) ثائرًا عند قدومك ؟!

- لا ! بل فى هدوئه المعتاد ..

- ألم يبد عليه أقل أثر من الضيق ؟!

- ربما لم أستطع ملاحظة ذلك ..

- ألم تلاحظى أى شىء أثار ريبتك هذا النهار ؟!

- ....

- هل أعتبر صمتك إيجابًا ؟!

- إنها ملاحظة عابرة ، ربما كانت غير ذات قيمة !

- هذه الملاحظات تفيدنا - كرجال .. أقصد كنساء شرطة - كثيرًا ..

- عندما شرعت فى التنظيف ، لاحظت على الغبار الذى يغطى سيراميك الأرضية الأبيض ، آثار أقدام أعرفها جيدًا ..

- أهى لشخص معين ؟!

- كلا .. بل كانت آثار أقدام قط .. وهى غير قابلة لأن يخطئ أحد تعرفها ، كما تعلمين ..

- !!!!

* * *

٩ - مواجهة ..

استغرقت رحلتنا إلى منزل (فاتن) بالمقطم نحو الساعة إلا الربع ، كنت خلالها صامتة أحاول ترتيب أفكارى على ضوء المعلومات الجديدة ، و (فاتن) تصف لى الطريق إلى منزلها بعبارات (انعطفى يمينًا عند الشارع القادم) ، (يسارًا عند عربة الفول) ، (بعد ثلاث نقر سنجد أنفسنا فى شارع مواز لشارعنا) .. وهكذا !

حتى توقفت بالسيارة فى النهاية أمام منزلها المتواضع ، وسؤال آخر يبرق فى ذهنى :

- أخبرينى يا (فاتن) ، هل السيد (رفقى) معتاد على اصطحابك يوميًا إلى أقرب محطة أوتوبيس ؟

هزت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

- ليس كل يوم ..

- وماذا عن الأمس ؟!

- لا .. لم يفعل ..

- وأيكما غادر أولاً ؟!

- أنا بالطبع ، فقد أخبرتك أننى لا أملك مفاتيح حتى أغلق الـ (جاليرى) خلفى ..

- ألا تعلمين إلى متى ظل هناك ؟!

هزّت رأسها بالنفى مرة أخرى ..

- ألم يكن ينتظر أحدًا ؟!

- لا أدرى !

- حسنًا يا (فاتن) ، سترسل لك المباحث الجنائية برقية شكر غدًا على تعاونك المخلص معنا ..

قالت فى حرارة لا أدرى إن كانت مفتعلة :

- أنا فى خدمة الشرطة يا سيادة الـ ...

- الملازم (نسرين) !

أعتقد أننى مازلت مقنعة فى دور الشرطية .. يبدو أنهم كانوا محقين عندما قالوا إن من عاشر القوم أربعين يومًا صار منهم !

دعتنى (فاتن) للصعود معها على سبيل (عزومة المراكبية) المعهودة ، لكننى اعتذرت فى وقار ، وفور هبوطها انطلقت بالسيارة فى سرعة ، وأنا أحاول أن أتخيل إلى أى مدى بلغ القلق بوالدى العزيز على ابنته الوحيدة ؟!

سيقدر - بالتأكيد - أسباب غيابى الطويل ، وسيسعد - بالقطع - عندما يرى ما توصلت إليه .. إن أصابع الاتهام كلها تشير الآن نحو (رفقى) ، برغم أن الدلائل والقرائن ما زالت ناقصة ، وبرغم أن مسألة العين الأخرى ما زالت فى إطار الغموض ..

لأحاول أن أسمع شريط التسجيل مرة أخرى علنى أخلص منه بأمر لم أنتبه لوجوده ..

ضغطت زر (تشغيل) ، فانطلق صوت عذب يشدو :

(العيب فيكم .. يا فحبايبكم ..

أما الحب ، يا روحى عليه ..

يا روحى عليه) !

إننى لم أبدل الشريط ، أنا واثقة من هذا ثقتى فى ضوء الشمس ونور القمر ، فماذا يحدث بحق الله ؟!

ضغطت كابح السيارة بكل قوتى فتوقفت بغتة ، وأضأت مصباح السقف فى نفس اللحظة التى كانت يدى الأخرى تقلب بين كل الشرائط الموجودة ..

وكما تتوقعون ، لم أجد لشريط السيد (س) أدنى أثر !

* * *

ـ لا بد أنه قد أخذه بنفسه فى أثناء نزولى لـ (فاتن) عند محطة الأوتوبيس !

هكذا أنهيت سرد أحداث الليلة الماضية ، وأنا جالسة فى مكتب (هشام) أعب من زجاجة (الكولا) ، بينما يلهو هو بفتاحة الخطابات منتظرًا أن أقول شيئًا آخر ، أو ربما كانت هناك للقصة بقية ..

ـ هذا كل شىء ..

ـ رائع .. ثم عدت إلى والدك الدكتور (فاروق) بالمستشفى !

فهمت ماذا يقصد ، فتنهدت قائلة :

ـ لقد كان غاضبًا بحق ..

ووالدى العزيز ـ لمن لا يعلم ـ لا يقترن غضبه بالثورة والصراخ والتلويح باليدين ، إنه فقط يرتدى قناع الجمود الذى لا يلين قبل أيام ثلاثة !

ـ لكنى سأعرف كيف أصالحه ..

ثم اعتدلت بعد أنهيت الزجاجة ، وتجشأت بصوت مكتوم واضعة راحتى فوق فمى .. أسأل :

ـ ما رأيك فيما سمعت ؟!

سألنى وهو يعيد فتاحة الخطابات إلى جرابها :

ـ بدون مجاملة ؟!

ـ بالتأكيد .

ـ بلا قيمة تقريبًا !

إنه يتعمد اللعب على وتر الحساس ، فأنا لا أحتمل إطلاقًا أن يقلل أحدهم من شأن عملى ، حتى لو كان (أحدهم) هذا (هشام) نفسه !

وقد لاحظ بالتأكيد احمرار وجنتى الناجم عن حنقى مما قال ، فسارع يفسر :

ـ قبل أن تسيئى فهم مقصدى ، دعينى أسألك سؤالاً واحدًا : ما رأيك أنت فيما خلصت إليه من ليلة أمس الحافلة ؟!

ـ الكثير ، رواية مدام (شيرويت) مثلاً ..

ـ قد تفيدك فى صياغة تحقيق صحفى ، لكنها أبدًا لن تفيد فى التحقيق بشأن الجريمة !

فى عناد قلت :

ـ وظهور السيد (س) ؟!

ـ كل ما ذكرتيه لى هو أن (للقط عينين) حسبما قال ، وقبلها كتب (لا عزاء للفئران) ، وسيظل يلهو بعباراته الإنشائية فى الظل حتى نتمكن من القبض عليه فى النور ! ثم أين هو هذا الشريط الذى تقصين عنه ؟!

قلت وعنادى يشتد :

ـ و (فاتن جاد) .. لقد قالت ...

قاطعنى بقوله :

ـ كل ما قصصت لى بشأن ما قالت مدون لدينا بالحرف فى المحاضر ، لكنا نبحث عن الدليل القاطع لو ما زلت تذكرين عمل الشرطة !

أفحمتنى ردوده الباترة ، لكن عنادى أبىَ علىَ أن أصمت ، فقلت كطفلة عاقدة حاجبيها :

ـ فلتستدع (رفقى حسان) إذن وتسأله ..

ـ أسأله عن ماذا ؟!

ـ (عين القط) الأخرى !

ابتسم كأب حنون لم تزعجه عصبية طفلته ، وقال :

ـ لقد استدعيته بالفعل ..

ارتفع حاجباى فأدرك دهشتى ، لكنه سارع بالقول :

ـ ليس لأسأله عن هذا الهراء قطعًا ، ولكن لاستكمال عناصر ضرورية أخرى فى التحقيق !

بلهفة سألت :

ـ ومتى سيحضر ؟!

ـ إنه على وشك الحضور ..

ـ سأنتظره ..

هز كتفيه وهو ينهض قائلاً :

ـ كما تحبين .. لكنى ذاهب للمأمور فى شأن عاجل لا يستدعى التأخير ..

ـ سأنتظره وحدى ..

ـ حسنًا ، ولكن إياك أن تعبثى بشىء !

لم أسمع هذه العبارة منذ كنت فى السادسة من عمرى ، وأغاظنى أكثر أنه لم يمنحنى الفرصة لأرد عليه ، فقد أغلق علىّ باب غرفته على الفور .. وهكذا لم يعد أمامى سوى أن أسترخى ، وأعيد النظر فى هذه القضية المتشابكة ..

(رفقى حسان) هو المتهم الأول ، هذا لم يعد فيه مجال للشك بالنسبة لى على الأقل ، لقد أخفى (عين القط) ـ عامدًا متعمدًا ـ عن العيون فى مكان أمين ، ثم ادعى فى محاضر الشرطة أنها سرقت ، وهذا ليقبض قيمة التأمين ، ويكفينى دليلاً على هذا هدوؤه المريب الذى تروى عنه (فاتن جاد) صبيحة يوم الحادث ، برغم أنه يبدو شخصية عصبية سهلة

الاستثارة ـ من الطراز الأول (أ) تبعًا لعلم النفس ـ وأمر كهذا كفيل بجعله يثور كألف بركان ..

إنها قصة بسيطة ، لكنها لا تفسر الكثير من النقاط الغامضة :

فأولاً : ما حكاية العين الأخرى ؟! هذا لو افترضنا وجودها أصلاً طبقًا للتفسير البديهى لما قاله السيد (س) عبر شريط التسجيل ؟!

وثانيًا : آثار أقدام القط التى نظفتها (فاتن) صبيحة يوم الأمس ؟! كيف ومتى ومن أين أتت ؟!

وثالثًا : اعتراف السيد (س) بأنه قد سرق الحجر الكريم ينفى التهمة تمامًا عن (رفقى) !

فهل يكون (رفقى) .. فى نهاية المطاف .. هو السيد (س) نفسه ؟!

كلا .. مستحيل !

لكن التفكير بهذه الصورة لا يقود إلا لطريق مسدود !

ما زلت فى حاجة لمزيد من المعلومات ، من أين ؟!

ماذا عساى أن أفعل ، كخطوة تالية ؟!

جاءتنى الإجابة فى الثانية التالية ، مع انفتاح باب الغرفة بعد طرقات خفيفة ، وظهور السيد (رفقى) عند الأعتاب ..

من الواضح أنــه فوجئ بوجودى ، فقد حدق فىَ ببلاهة ، بينما رسمت أنا بسمة ودَ زائف ، ولسان حالى يرحب به هاتفًا دون صوت :

ـ ها نحن أولاء نلتقى من جديد ، سيد (رفقى) ..

تنحنح هو ثم سأل :

ـ هل الرائد (هشام) موجود ؟!

هززت رأسى بالإيجاب ، وأشرت نحو المقعد المقابل أدعوه للجلوس وأنا أقول :

ـ وطلب منى إبلاغك أن تنتظره قليلاً ..

نظر فى ساعته ، وهزَ رأسه يمنة ويسرة وهو يغمغم :

ـ ولكن الوقت ضيق للغاية !

ـ إنه لن يغيب أكثر من خمس دقائق !

هزَ كتفيه مسلمًا بالأمر الواقع ، وجلس ينتظر وأنا أتفرس فيه محاولة إيجاد أفضل وسيلة لبدء الهجوم .

ـ هل تعلم أننى مهتمة بالأحجار الكريمة ، سيد (رفقى) ؟!

ـ نعم ..

ـ هذا بعيدًا عن ميولى الصحفية تمامًا ..

ـ ....

ما زال وجلاً منى ، ولن يفيد مع شخص كهذا سوى الأسلوب المباشر ..

ـ سيد (رفقى) ، هل لى أن أسألك سؤالاً واحدًا .. وتعطينى له إجابة محددة ..

حدق فىّ بعينيه الذكيتين محاولاً استجلاء ما أخفيه ، لكنى لم أكن أنوى ترك أى مجال للتراجع .. فأضفت :

ـ أهذا ممكن ؟!

ـ تفضلى ..

قالها ووضع ساقًا فوق أخرى متحفزًا للإجابة عن أى سؤال ، لكنى كنت أعرف أنه لن يتوقع أبدًا سؤالى ، إلا فى حالة واحدة ، أن يكون هو نفسه السيد (س) وهو أمر غير وارد تمامًا ..

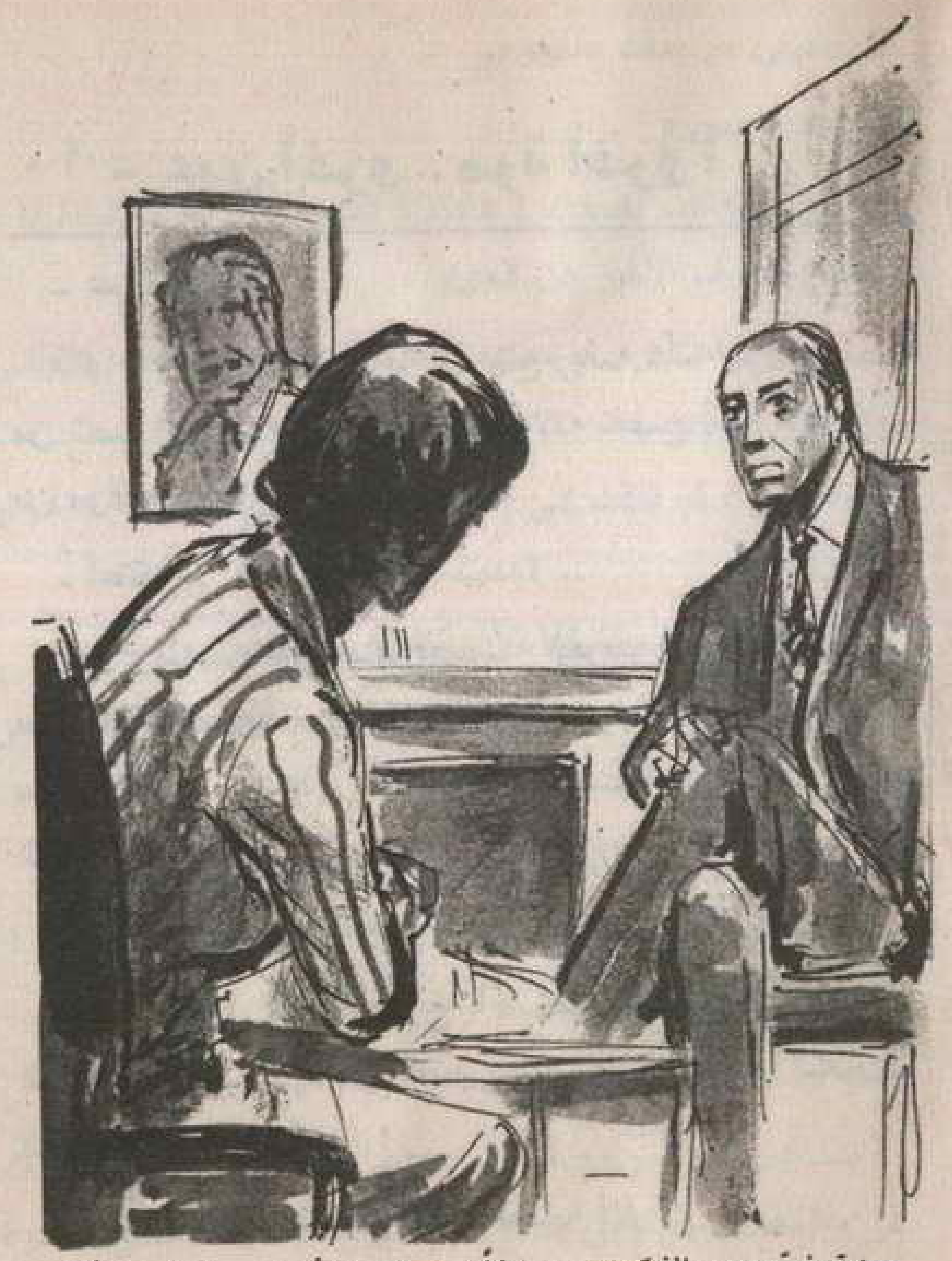
ـ أين ذهبت (عين القط) الأخرى ؟!

هل ترون ؟! إن ذهوله واتساع عينيه وسقوط فكه ـ كالمعتوهين ـ دلالات أكيدة على أنه لم يتوقع أبدًا معرفتى بأمر كهذا ..

إن هناك (عين قط) أخرى ..

وأنا واثقة من هذا الآن ثقتى فى ضوء الشمس ، ونور القمر !

* * *



حدق فىّ بعينيه الذكيتين محاولاً استجلاء ما أخفيه ، لكنى لم أكن أنوى ترك أى مجال للتراجع ..

١٠ - عين أخرى .. مرة أخرى !

- عم تتحدثين ؟!

قالها (رفقى حسان) بعد أن ابتلع ريقه كأنه يزدرد حجرًا من الصوان ، وكان إدراكه لأن انفعالاته تفضح أمره أكثر يزيد من موقفه سوءًا ..

- أعتقد أنى قد طلبت إجابة محددة ..

أخرج منديله من جيب قميصه الحريرى وشرع يجفف ما رشحته العصبية من قطرات فوق جبهته ورأسه الأصلع ، بينما عقدت أنا ساعدى أمام صدرى منتشية بكونى فى وضع القوة ..

- لا أعلم شيئًا عن هذا ..

كان كالغريق الذى يصرخ : أستطيع السباحة .. أستطيع السباحة .. القول يناقض مقتضى الحال ، وهذا هو التعريف المعجمى لكلمة (كذب) !

سألت بابتسامة ضغطت على أعصابه أكثر :

- أأنت واثق ؟!

- ليس من حقك استجوابى ..

- هذا صحيح !

العبارة جاءت بصوت (هشام) الذى اقتحم الغرفة لحظتها ، ليسمع الطرف الأخير من الحوار ..

- لتقبل اعتذارى ، سيد (رفقى) ، بالنيابة عن خطيئتى الآنسة (نسرين) ..

تصافحا ، ثم التفت إلى (هشام) قائلاً فى ابتسامة لا أدرى لها وصفًا :

- وأعتقد أنها ستتركنا الآن لنتناقش قليلاً ..

رسمت ابتسامة مماثلة وأنا أنهض فى تثاقل ، مدارية غيظى بقولى :

- بالقطع ، فلدى العديد من الشئون المهمة ..

ولما كنت غير صادقة ، فقد اتجهت من فورى نحو المنزل !

* * *

- أما زال أبى الحبيب غاضبًا ؟!

تشاغل عنى بأرجحة كرسيه الهزاز ، والتظاهر بالانهماك فى مطالعة مرجع طبى يصلح لهواة رفع الأثقال .. لكنى مصرة على الصلح ..

ـ أنا آسفة ، لقد كنت مخطئة حقًا !

وقبلة فوق وجنته ، وصفة ذات مفعول سحرى لا تخذلنى أبدًا .. المشكلة فقط أن أبى هو أكثر من يفهمنى فى هذه الدنيا بأسرها ..

ـ ماذا تريدين أيتها الجنية ؟!

ـ أريدك ألا تخاصمنى !

ـ فقط ؟!

لا مفر من مواصلة الدور حتى آخره ، فلو طلبت شيئًا الآن سيظن أننى صالحته لأجل تحقيق الطلب ، وأنا لا أحب أن أبدو وصولية ، أو متسلقة ، أو منافقة ، إلى آخره من هذه الصفات النفعية !

ـ هذا كل ما فى الأمر ..

جرس الهاتف يرن بالصالة ، أظنه (هشام) يريد الاعتذار عن موقفه السخيف .. لكنى واقفة أمام أبى كصنم جاهلى ..

ـ الهاتف يرن !

قالها أبى ، مبديًا تعجبه من عدم هروعى نحوه كالمعتاد ..

ـ لن أرد حتى تعلن صفحك عنى ..

ـ وهل أستطيع إلا أن أصفح عنك ؟! هيا .. اذهبى قبل انقطاع الرنين ..

قبلته مرة أخرى وفى جزء من الثانية كنت أرفع السماعة ، وكما توقعت ، كان (هشام) هو المتصل ..

ـ أفندم ؟!

ـ غاضبة كما توقعت ..

ـ حسنًا ، لقد تأكدت الآن ، فماذا هناك ؟!

ـ فلتقبلى أسفى !

ـ بأى عذر ؟!

ـ عذرى قوى ، فأنت تعلمين أنه ممنوع تمامًا استجواب أى شخص بصفة رسمية فى وجود ثالث لا علاقة له بالموضوع !

ـ حقًا ؟!

ـ ثم .. لقد خلصت من استجوابى له بأمر ما ..

تغلبت لهفتى على غضبى ، فسألت على الفور :

ـ ما هو ؟!

ـ إن شكوكى حول هذا الرجل تتزايد ..

ـ ألم أقل لك ؟!

ـ بلى ، لكنها محض شكوك لا تدعمها أية أسانيد ذات وزن ..

ـ هل قال شيئًا ما ؟!

ـ كلا .. لكنه كان مرتبكًا ، متلعثمًا ، بصعوبة استطاع ترتيب حروف كلماته ، و ...

ـ هل سألته عن العين الأخرى ؟!

ـ كلا ..

قلت فى امتعاض :

ـ أضعت فرصة ثمينة !

ـ هل سألتيه أنت ؟!

ـ كاد يجيب عندما أخرجت لى أنت الكارت الأحمر لأغادر مكتبك مطرودة !

ـ لعل هذا سبب ارتباكه إذن ..

ـ يا لذكاء رجال الشرطة !

ـ ربما أفكر فى استدعائه مرة أخرى ، أو ...

ـ افعل ما يحلو لك ..

ـ وأنتِ ؟!

ـ ليست لدى فكرة محددة عن الخطوة القادمة .. لكنى سأخطوها حتمًا ..

ـ انتبهى ، فمن يمسك بالثعبان لا بد أن يتوقع اللدغ ..

ـ إن لك حسًا أدبيًا رفيع المستوى !

ـ أشكرك !

وأنهينا المكالمة .. وألقيت بجسدى فوق أريكة الصالون محاولة إيجاد خطة مناسبة لعمل الليلة ..

هل أزور الـ (جاليرى) مرة أخرى ؟! ربما يقتلنى (رفقى) لو رآنى !

(شيرويت) هانم ؟! لا .. لن تخبرنى بالجديد ، وليس لهذا الرأى أدنى علاقة بقططها الوديعة المتوحشة !!

(فاتن جاد) ؟! لقد قالت كل ما تعرف مرتين !

ما العمل إذن ؟!

مسألة العين الثانية هذه تبدو كصندوق يقبع داخله مفتاح اللغز ، ولكن من يدلنى على كلمة السر التى تفتح الصندوق سوى (رفقى) ؟!

أو ....

جرس الهاتف مرة أخرى ..

ـ آلو ..

ـ آلو ..

ـ سيد (س) ؟!

ـ رائع .. عرفتينى وحدك هذه المرة ..

ـ الشريط .. الـ ... العين الـ ... (رفقى) .. أعنى ..

ـ رويدًا رويدًا ، هونى عليك واهدئى قليلاً ..

ـ هناك ألف موضوع أريد السؤال عنه ..

ـ السيد (س) لا يُسأل .. إنه يَسأل فقط !

ـ ولكن العين الأخرى الـ ...

ـ هذا هو السؤال .. وقد ظننتك أذكى من هذا كى تستطيعى الإجابة عنه ..

ـ أى سؤال ؟!

ـ آنستى الصغيرة ، إن (عين القط) التى بحوزتى تخص قطًا أعور !

ـ ماذا ؟!

ـ أول سؤال فى التاريخ يأتى فى صيغة خبرية !

ـ ولكن ...

ـ توت .. لقد أطلق الحكم صفارته وانتهى وقت المباراة .. إلى اللقاء فى ضربات الجزاء !

ثم صوت إغلاق السماعة يليه الصفير المتقطع الذى يعنى انقطاع الخط !

رأسى مثل بالون ممتلئ بغاز الهيليوم ، حتى إننى أشعر كأنى أطير !

رفعت السماعة بعد غلقها لتعود الحرارة ، وطلبت (هشام) ..

ـ من معى ؟!

ـ أنا (نسرين) يا (هشام) ؟!

ـ ما الخطب ؟! هل كنت تمارسين تمرينات رياضية ؟!

ـ كلا ..

ـ فيم إذن لهاثك هذا ؟!

ـ اسمع .. لقد اتصل بى السيد (س) هاتفيًا الآن !

ـ حقًا ؟!

ـ لقد أضعت الرقم الذى أمليته لى منذ شهر لمراقبة الهاتف ، و ...

ـ ولكن الخدمة تجدّد شهريًا ، وهذا الشهر ... أعنى ...

فهمت ، لقد كان الأمل مفقودًا تقريبًا فى اتصاله مرة أخرى ..

- حسنًا يا (هشام) ، سأتصل بك لاحقًا .. إلى اللقاء ..

أغلقت السماعة ، ووقفت قليلاً أحدق فى المجهول ، حتى عزمت فى النهاية على اتخاذ الخطوة القادمة .. والحاسمة ..

* * *

١١ - خدعة جهنمية ..

هتفت (رحاب) - صديقتى التى تهوى قصص الرعب والمغامرات - فى انبهار :

- يا إلهى ! كل هذا مر بكِ فى يوم ونصف !

هززت رأسى بالإيجاب ، وأنا أقول متظاهرة بالضيق :

- نعم .. من يصدق هذا ؟!

كل الذين يمرون بأحداث عصيبة وخطرة يتمنون فى قرارة أنفسهم لو عاشوا حياة هادئة مسالمة ، وبرغم أنى لا أتمنى هذا ، إلا أننى لست أقل منهم فى شىء !

- إنها تصلح مغامرة بوليسية رائعة !

ألم أخبركم أنها لا تفكر إلا بهذه الصورة ؟! إن موضوع السلسلة البوليسية الأنيقة التى تحمل اسم (مغامرات س) مازال يجول بخاطرى ، لكن هذا ليس وقتها المناسب !

- نعم ، لكن قصة بوليسية لا تنتهى بمعرفة الجانى الحقيقى هى قصة محكوم عليها بالفشل حتى قبل أن تُكتب !

- لو أردت رأيى ، طبقًا لخبرتى الواسعة بهذه الأمور ، فـ (رفقى) هو السارق !

يا للعبقرية !

ومن أتى لاستشارة خبيرة مثلك ؟!

ـ هذا مفهوم .. ولكنا بحاجة لدليل .. ثم إن السيد (س) ..

قاطعتنى مستعيدة انبهارها بما رويت :

ـ إنها شخصية ذات طابع فريد ، وخصائص لم تكتب فى أى رواية من قبل !

ـ (رحاب) .. هذا الأمر سيبقى سرًا بيننا ، أليس كذلك ؟!

ـ بالطبـ ...

لم تكمل ، فقد انتبهت فجأة ـ وسط حماسها الجارف ـ أنها لن تخبر أحدًا بهذا الأمر المثير مطلقًا ، حسبما أطلب منها ..

ـ بالطبع ..

أعادتها فى صوت خافت دون حماس ، لكن كلمة كهذه لن تكفينى ، لابد من إشعارها بأهمية الكتمان مرة أخرى ..

ـ إنها احتياطات أمنية من الدرجة الأولى كما أخبرنى (هشام) ، إننى لن أخبره بأنك قد علمتِ أصلاً !

ـ حسنًا .. حسنًا ..

ـ عدينى !

ـ أعدك ..

شعرت باطمئنان نسبى ، فـ (رحاب) معروفة بيننا بصونها لعهودها ..

نظرت نحو الساعة ، العقارب تهرع نحو السادسة مساءً ، مازال أمامنا متسع من الوقت .. لماذا ؟! ستعلمون بعد قليل ..

سألتنى (رحاب) فى اهتمام وقد شغفها الأمر الذى يبدو مثيرًا حقًا على أرض الواقع ، إثارة تتجاوز حدود خيال الروائيين على صفحات المغامرات البوليسية :

ـ وماذا ستفعلين الآن ؟!

ـ لقد وضعت تصورًا للأمر على ضوء حديث السيد (س) لى ظُهر اليوم .. وخاصة فيما يتعلق بالعين الأخرى ..

ـ وما هو هذا التصور ؟!

ـ لقد قال إن العين التى معه هى عين قط أعور .. وهذا يحمل دلالة قد تبدو غامضة نوعًا .. ولكن بقليل من إعمال العقل نستطيع أن نتخيل أن العين التى سرقها السيد (س) من خزانة الـ (جاليرى) ، هى فى النهاية عين زائفة !

ـ زائفة ؟!

ـ نعم .. لقد صنع (رفقى) نسخة مزيفة طبق الأصل من (عين القط) الأصلية ، لغرض ما فى نفسه .. ثم سرقها

السيد (س) ، بينما بقيت الأصلية فى حوزة (رفقى) الذى ربما يبيعها لأحد هواة جمع الأحجار الكريمة الأثرياء ، وهكذا يقبض (رفقى) ثمن الحجر مرتين ، مرة من شركة التأمين ، ومرة عن طريق صفقة البيع ..

اتسعت عينا (رحاب) من هول الفكرة ، ثم قالت فى غير تصديق :

- ولكن .. ولكن هذا يعنى أن السيد (س) شريكه فى الجريمة !

عقدت حاجبى فى استنكار وأنا أسألها :

- ماذا تقولين ؟!

- ألم يقم هو بسرقة الحجر الزائف ؟!

لم أهضم الفكرة ، ولم تخطر لى ببال أصلاً .. ربما لثقتى اللانهائية فى السيد (س) ، ثم كيف يتآمر مع (رفقى) ويبلغ عنه بهذه السهولة ؟!

إن هذا يعود بنا نحو التفكير فى كون السيد (رفقى) هو نفسه السيد (س) ، لكنى مازلت مصرة على كون هذا رابع المستحيلات !

- لا أظن هذا ..

- لكنه وارد ضمن الاحتمالات ..

- دعينا الآن من لغز هوية السيد (س) ، ولنفكر فى إثبات التهمة على (رفقى) ..

- كيف ؟! هل لديك خطة ما ؟!

- نعم .. خدعة جهنمية !

- وهل ستخبرينى بتفاصيلها الآن أم بعد إتمامها ؟!

ابتسمت محدقة فى وجه (رحاب) ذى الملامح الدقيقة المنمنمة :

- لن أستطيع إخبارك بتفاصيلها بعد إتمامها ، لأنك ستكونين الركن الأساسى فيها يا صديقتى العزيزة ..

عادت عينا (رحاب) تتسعان مع شهقة فرح صدرت عنها عفويًا ، فها هى أخيرًا تحقق حلمها وتشارك فى مغامرات بوليسية واقعية ، بعيدة كل البعد عن دنيا الخيال !

* * *

نقدت سائق سيارة الأجرة أجرته ، ونظرت فى الساعة فوجدتها لم تتجاوز السابعة والنصف ، هذا حسن ، مازال أمامى وقت حتى التاسعة ، التى وعدت أبى بالإياب فيها تمامًا ، بعد محاولات مستميتة ليسمح لى بالنزول بحجة الاستذكار عند (رحاب) ..

وبالطبع لم تبلغ جرأتى حد طلب السيارة منه مرة أخرى ، بعد تأخير الأمس !

أعتقد أننى لن أكررها اليوم ، فالخطة التى رسمتها لا تحتاج لأكثر من نصف ساعة ليتم تنفيذها ، سواء نجحت أو باءت بالفشل الذريع !

نظرت نحو (رحاب) التى سارت بجوارى فى كامل أناقتها ، كأنها ذاهبة إلى حفل ملكة جمال الكون لتفوز بالمركز الأول دون منازع ، وصفرت ثم هتفت بها مداعبة :

ـ بدأت تشبهين الفتيات حقًّا !

لكزتنى فى كتفى سائلة فى استنكار :

ـ ماذا تقصدين ؟!

ـ لا شىء ..

ثم أشرت لها نحو مكان محدد ، قائلة :

ـ ها هو ذا الهدف ..

نظرت إلى حيث أشرت ، وغمغمت وهى تقرأ ما أمامها :

ـ (جاليرى رفقى) ! يبدو مكانًا راقيًا ..

ـ ليس كل ما يلمع ذهبًا يا صديقتى ..



ثم أشرت لها نحو مكان محدد ، قائلة : ـ ها هو ذا الهدف ..
نظرت إلى حيث أشرت ، وغمغمت وهى تقرأ ما أمامها :
ـ (جاليرى رفقى) ! يبدو مكانًا راقيًا ..

ثم أمسكت بذراعها لكى تتوقف ، وأنا أقول فيما يشبه الهمس ، برغم أن الشارع كان خاليًا تقريبًا :

ـ لن أستطيع الاقتراب أكثر .. فلربما رآنى أحد ففهم الخطة على الفور ..

ـ هذا مفهوم ..

قالتها بنفس الهمس الممتزج بالخطورة ، لو رآنا أحد المارة الآن لظنَ أننا نخطط لنسف إحدى السفارات أو المواقع الاستراتيجية !

ـ هل تذكرين بنود الخطة جيدًا ؟!

ـ نعم ..

قالتها مبدية شعرة من الارتباك ، فقررت أن أعيد عليها ما اتفقنا عليه فى عجالة ، من باب الاحتياط الذى هو واجب :

ـ أنت الآن إحدى هواة التحف النادرة ، والنفائس الثمينة ، ستقدمى نفسك لـ (رفقى) على أنك ابنة أحد الأثرياء المشهورين ، وستتفقدين كل الموجودات ولا تعجبك ، حتى تسألى فى النهاية عن شىء فريد ربما لا يريد (رفقى) إطلاع أحد عليه ..

ثم أضفت فى تمنٍ :

ـ ولنأمل أن يعرض عليك (عين القط) ، حتى لا تضطرى للسؤال عنه بطريقة مباشرة ..

ـ إذ سيثير هذا بعض الشكوك فى نفسه ـ بالتأكيد ـ فإذا فعل ، تكون كل شكوكنا فى محلها ، ويكون (رفقى) هو الفاعل !

ـ وإذا لم يفعل ؟!

ـ لن ينفى هذا التهمة ، ولن يقضى على شكوكى ، سأفكر عندها فى خطة أخرى ..

ـ وماذا أفعل لو لم أجده بالداخل ؟!

ـ ستجدينه ، فها هى ذى سيارته المرسيدس الحمراء !

قلتها وأنا أشير إليها ، وعادت (رحاب) تسأل :

ـ وأين ستكونين أنت ؟!

ـ سأنتظرك هاهنا متظاهرة بمشاهدة واجهات المحال التجارية .. هذا كل شىء ، فهل من أسئلة أخرى ؟!

هزت رأسها بالنفى ، لكن التوتر كان يطفو على سطح مشاعرها ، أستطيع الجزم بهذا ..

ـ أهناك ما يخيفك يا (رحاب) ؟!

ـ كلا .. كلا .. سأفعلها على خير وجه بإذن الله ..

وغابت عند بوابة الجاليرى ، وأنا أرمقها وقد انتقلت عدوى التوتر إلى مشاعرى !

* * *

(ـ احذرى .. هذه هى البداية التقليدية لأفلام الرعب ..) !!

* * *

١٢ ـ اليقين ..

الساعة الثامنة والنصف .. ولم تخرج (رحاب) بعد !

هل تتقن دورها إلى هذا الحد ؟!

ثم .. لقد غادرت (فاتن جاد) الجاليرى بعد دخولها بحوالى عشر دقائق .. ولم تعد للآن ، إن الفئران قد بدأت تصول وتجول فى صدرى .. والقلق قد شرع يفتت قدرتى على الصبر والتركيز كما يفتت شعاع الليزر صخرة صلدة !

سيارة (رفقى) ما زالت رابضة فى مكانها ، وهذا يعنى أنه ما زال بالداخل ، فما الذى يحدث هناك بحق الجحيم ؟!

الوساوس لا تنتهى ، ولأنها وساوس فهى لا تحمل أدنى توقع يبشر بخير .. وإنما الشر والسواد والفشل ..

هل أدخل بنفسى لأستطلع ما يجرى ؟!

ومن أدرانى أن الخطة لا تسير كما ينبغى ، وأن تدخلى الآن فى هذه اللحظة تحديدًا سيفسد نجاحها الذى كاد يكتمل ؟!

ولكن من أدرانى أيضًا أن الخطة لم تنكشف ، وأن المسكينة (رحاب) واقعة الآن فى شر تدابيرى ذات النوايا الطيبة المفروش بها الطريق إلى جهنم ؟!

هل أقدم أم أحجم ؟!

لقد تضاعف توترى ملايين المرات ، وقلبى يقفز بين ضلوعى كدجاجة ذبيحة ، ويداى ترتعشان من فرط العصبية ..

لا .. لن أحتمل الوقوف هنا حتى النهاية ..

عقارب الساعة المستمرة فى دورانها دون أن يحدث شىء تصرخ بى أن أفعل شيئًا ، وهناك صوت ما يدوى فى أعماقى يناشدنى بالتحرك من سكونى الأجوف ، ويأمرنى بأن أفعل شيئًا .. وإحساسى الخفى بأن الأمور لا تسير على ما يُرام تفجر فىَّ إحساسًا آخر يرجونى أن أفعل شيئًا ..

ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أجتاز بوابة الجاليرى الزجاجية .. وعلى عكس ما هو مفترض ، كان الصمت هو سيد الموقف ..

وحيدة وسط معروضات أثرية تحدق فى باستغراب ، كأنى أنا الكائن الحى الوحيد المتواجد فى هذا القبر الفنى الأنيق ..

أين (رحاب) ؟! و (رفقى) ؟!

- سيد (رفقى) ..

أكاد أسمع لندائى صدى وسط هذا الفراغ المخيف !

- (رحاب) ..

أخاطر بكشف الخطة تمامًا ، ولكنى واثقة الآن من أنها قد فشلت .. فأين هى (رحاب) ؟! أين ؟!

مكتب السيد (رفقى) الملحق بالمعرض خال كقلب العازب !

أين ذهب (رفقى) و (رحاب) ؟! هل تبخرا ؟! تلاشيا ؟! أم يكونا قد خرجا من باب خلفى سرى مثلاً ؟! ولكن لماذا ؟! وفيم هذا العناء ؟!

لأفتش من جديد ..

ومن بين المعروضات الكثيرة التى يعج بها الجاليرى ، وجهت بصرى نحو أحدها تحديدًا ، وقد تذكرت أمرًا ..

★ ★ ★

(.. برز من مكان ما ، ربما من خلف ذلك التمثال العملاق الذى يمثل أحد أبطال الإغريق فى الغالب .....) ..

★ ★ ★

خلف التمثال كانت (رحاب) !

مقيدة اليدين والقدمين ، وشريط من اللاصق الأبيض فوق الفم .. وفوق هذا غائبة عن الوعى تمامًا ..

وسردى لحالتها بهذا الهدوء لا علاقة له بما انتابنى وقتها ، ولو عرف أحدكم وصفًا واحدًا يمزج الهلع بالذهول بالألم بالإحساس بالذنب ، فسيكون وصفًا مناسبًا تمامًا لحالتى عندما وقع بصرى عليها ..

جثوت على ركبتى أمامها ، وأنا أردد فى هستريا :

- (رحاب) .. يا إلهى .. ماذا فعلت ؟! ماذا فعلت ؟!

وكدت أنفجر بالبكاء ..

أقول (كدت) لأن الوقت لم يتسع لهذا أبدًا ، فكل ما أذكره هو صوت من خلفى يقول :

- لقد جننت .. كما توقعت تمامًا ..

والتفت فى حدة انفعالية ، لكنى لم أر شيئًا على الإطلاق ..

بل لم يكف الوقت حتى لأميز الصوت ..

لقد فاجأنى رذاذ انطلق من بخاخة ، غمر وجهى بالنداوة ، لكنى فى الحال وقبل أن أشعر بأى شىء آخر ، سقطت فاقدة الوعى بجوار (رحاب) كجوال من القمح !

* * *

المدى أخضر كريستالى .. متألق بدرجات الداكن والشفاف ..

والأرض مربعات بيضاء وسوداء كرقعة شطرنج ، تمتد فى كل الاتجاهات نحو نقطة التماس مع اللانهاية ..

وأنا لا أمشى .. بل أطير .. أو أسبح فى الهواء .. أو أرتقى درجات سلم لا درجات له !

خفيفة أنا كريشة فى مهب الريح ..

حتى ألقاه ..

متحدًا كعادته مع الظل ، حتى إنى أحار ، أيهما الرجل .. وأيهما الظل ..

أتوقف عند نقطة انعدام الوزن ..

- من ؟!

هل هو صوتى ؟! إنه كذلك ولكن عندما كنت طفلة فى الرابعة !

- إنه أنا يا صغيرتى ..

لست صغيرة .. ولست صغيرتك أنت بالذات ، لكنه محق كما عودنى ، ففى مرآة الحلم رأيتنى تلك الطفلة ذات الجديلتين ..

- أنا لا أعرفك ..

لم أره يبتسم ، فهو لا يملك فمًا مثلنا ، لكنه مع هذا قال مبتسمًا :

- ربما تتصورين هذا فقط ..

أمد يدى محاولة لمس وجهه ، لكنه بعيد كالمريخ ..

- أريد أن أراك ..

ـ لن ترى فىَ ما تحبين !

ـ اخرج للضوء ..

ـ الظل روحى وريحانى !

ـ أرجوك !

أهتف بها فى رجاء طفولى ، فيسود الصمت ..

ـ ما رأيك فى هذا الوجه ؟!

هو لم يغادر منطقة الظلال ، وإنما برز له من العدم قناع فقط ..

ـ أماه .. اننى أخاف القطط ..

ـ أعلم ، لقد ألقى الصبى بقط فوق ظهرك !

ـ كيف عرفت ؟!

ـ لا أسئلة !

ـ اخلع القناع ..

ـ وجهى آلاف الأقنعة ..

ـ اخلع القناع ..

ـ وجهى آلاف الأقنعة ..

ـ أنا أخاف القطط ..

ـ إنها مثلى ، بسبعة أرواح !!

* * *

رائحة النشادر القوية النفاذة جعلتنى أفيق فجأة ..

ـ ها هى زميلتك قد أفاقت !

(رفقى) ؟! لقد قطع الشك باليقين إذن !

كان يحدث (رحاب) ، وكانت مقيدة إلى مقعد خشبى إلى جوارى ، أما أنا فلم أختلف عن وضعها كثيرًا ..

ـ وهى شجاعة بالقدر الكافى لتعترف بتعاونكما للإيقاع بى ، أو لنقل إنها اعترفت بالفعل فى الجاليرى ..

هتفت (رحاب) فى ضراعة :

ـ لا تؤذنا أرجوك .. لم نكن نقصد الإساءة .. صدقنا ..

وانخرطت فى بكاء حار ضاعف إحساسى بالذنب ملايين الملايين من المرات ، فوجهت نظرة مقت صريح نحو (رفقى) الذى قال :

ـ لن يجدى البكاء على اللبن المسكوب !

فى تحد سافر قلت عاقدة حاجبى :

ـ إنه أنت إذن ، سيد (رفقى) ..

ابتسم فى سخرية وهو يقول :

ـ تبدين واثقة من نفسك إلى حد لا يصدق بالمقارنة لصديقتك ..

ـ أقترح أن تطلق سراحها ، فليس لها أدنى علاقة بالموضوع ..

تحولت بسمته إلى ضحكة مجلجلة وهو يقول مشيرًا بيديه فى حركات مسرحية مبالغ فيها :

ـ يا لقلبك المرهف الرقيق ..

ـ ويا لساديتك ووحشيتك وسفالتك ونذالتك ..

هزَّ كتفيه مستهينًا وهو يقول :

ـ وماذا أيضًا ؟!

صرخت (رحاب) فى هستريا الفزع المعروفة :

ـ ماذا ستفعل بنا ؟! ماذا ستفعل بنا ؟!

ـ اصرخى كما شئت يا صغيرتى ، فلن يسمعنا هنا مخلوق ..

أين نحن ؟! سؤال وجيه ، ولكن لا محل له من الإعراب فى ظروف كهذه ..

إنه يبدو كقبو نصف مضاء ، تنتشر فيه الصناديق والإطارات والكتب القديمة والأتربة والعناكب وربما الفئران والثعابين أيضًا !

ـ ولكنى سأجيبك على أى حال .. من الواضح أنكما ـ وبطريقة ما ـ كشفتما لعبة العين المزيفة ، ومن الواضح كذلك أن هذا الأمر لم يبلغ أحدًا سواكما بعد .. فلو حدث لوجدت الشرطة والنيابة وهيئة القضاة فوق رأسى .. ومعنى هذا ـ من وجهة نظرى ـ أنكما تمثلان عائقًا فى وجه إتمام الصفقة ..

وفرك كفيه ثم تابع فى شراسة :

ـ ولما كان ميعاد إتمام الصفقة هو الليلة ، فلا أريد أى عقبات ، وهكذا أيتها الطفلتان ، فمصيركما سيتحدَّد بعد إبرام الصفقة ، وقبض قيمة الحجر الأصلى ..

وردَّد كالمسعور :

ـ (عين القط) ..

وأردف فى شراسة أشد :

ـ وأشك إن كان مصيركما سيتضمن ـ فيما سيتضمن ـ خيار بقائكما على قيد الحياة !

ثم أطلق ضحكة أخرى مجلجلة !

★ ★ ★

١٣ - مفاجأة ..

- ومن هذا السيد (س) الذى تآمر معك لسرقة الحجر المزيف ؟!

- يا للصحفيين الذين يموتون ويبقى فضولهم حيًا !

كان سؤالى يحمل شكًا حقيقيًا ، ورغبة غير محدودة فى كشف هوية هذا اللغز المحير .. حتى وأنا فى هذا المأزق اللعين !

أو لعلى كنت أريد الانشغال - بأى شكل - عن دموع (رحاب) التى ما زالت تنهمر كشلالات (نياجرا) ، ونهنهتها التى تؤلمنى كوخز الدبابيس !

- أم أنك أنت الذى ابتكرت هذه الحيلة ؟!

- كلا أيتها المتذاكية ، إنه أحد المغفلين الذين يعج بهم هذا العالم ، أوقعه حظه العاثر فى سرقة حجر زائف وترك دليل لا يقبل الشك على هذا ، مما وفر علىَّ الكثير من المجهود للتخطيط للسرقة !

وككل مجرم أثيم مختال بذكائه ، انتفخت أوداجه وبدا كالطاووس وهو يذرع المكان ذهابًا وجيئة كأنه (يوليوس قيصر) على خشبة المسرح ..

- لقد كانت فكرتى منذ البداية ، أن أضرب عصفورين بحجر واحد ، فصنعت نسخة الحجر الزائف بيدى ، فى نفس الوقت الذى أمَّنت فيه على الحجر الأصلى بما يساوى قيمته الحقيقية ، ثم أخفيت هذا الأخير فى مكان لن يخطر على بال إنسان ..

ثم أفاجأ فى اليوم التالى بأن الحجر المزيف قد سرق بالفعل ، بوساطة لص خزائن محنك ، يدعى أن اسمه السيد (س) ، الذى سيدرك حتمًا كم كان أحمقًا عندما بذل كل جهده فى سرقة حجر كريم ، فكسب المسروق منه آلاف الجنيهات قيمة التأمين ضد السرقة ! هذا بالإضافة لموعد الليلة الذى .....

قاطعته - متعمدة - بقولى :

- ولكن (س) يعلم بكون الحجر الذى فى حوزته زائفًا ..

عقد (رفقى) حاجبيه للحظة ، ثم عاد يهز كتفيه قائلاً فى غير اهتمام :

- هذا لا ينفى كونه مغفلاً على أية حال ..

- أنت إذن تعتبر جريمتك كاملة !

قال فى ثقة لا تشوبها ذرة تردد :

- بالتأكيد .

قلت محاولة هز ثقته :

ـ هـذا لو تناسيت ظهورنا ، ووجودنا بهذه الحالة فى هذا المكان ..

ـ لن تبقيا هنا طويلاً .. وأعنى بـ (هنا) هذه الدنيا كلها ..

غضضت بصرى عن (رحـاب) التى بلغت حالة يرثى لها ، وأنا أهتف به :

ـ هل نسيت أننى مخطوبة لرائد فى المباحث الجنائية ؟! وأن والدى سيقلب الدنيا بحثًا عنى لو تأخرت عن ميعاد إيابى للمنزل ؟! و ...

هزَ رأسه نفيًـا مصـدرًا بفمـه تلك التأتأة المميـزة ، وأشـار بسبابته قائلاً :

ـ كلا يا فتاة ، لم أنس ولا يجـوز أن أنسى شيئًا ..

ثم عقد ساعديه أمام صدره وغمغم فى عمق :

ـ لقد عانيت كثيرًا فى الفترة الأخيرة ، وكادت ضائقة مالية أن تـودى بكل مـا أملك ، الجـاليرى والشقة والسيارة ، كنت مهددًا بإشهار إفلاسى بين ثانية وأخرى ، حتى امتلكت (عين القط) ..

سأقبض قيمة التأمين ، وقيمة الحجر ، وأترك الجمل هنا بمـا حمل ، لأبدأ حياة أخرى هنـاك فـى بلاد العـم (سـام) ، كصاحب رأس مال لا بأس به ..

سألت وقد استعصى علىَ فهم مـا يقول ، أو لعلنى رأيت ما يقوله منافيًا تمامًا للمنطق :

ـ ولكنك دفعت ثمنًا باهظًا فى العين الأصلية ، فمن أين جئت به مع هذه العسرة التى تروى عنها ؟!

اتسعت الابتسامة الصفراء فوق شفتيه الرفيعتيـن ، وهـو يقول :

ـ حتى هذه اللحظة أنت لم تشاهدى إلا نصف الحقيقة !

ماذا يعنى ؟! ثم ...

لماذا أشعر وكأن هناك شيئًا ما يتحرك من حولى ؟!

ـ ولكـن لا بـأس أن تطّلعـى علـى النصف الآخر ، مـا دمت ستفارقين الدنيا خلال ساعات معدودة ..

كان يتجه نحـو أزرار الإضـاءة ، وأنا ألتفت حولى وشعورى بأن شيئًا ما يتحرك هاهنا يفور فى صدرى كما تفور القهوة فـى الكنكة !

ـ استعدى للمفاجأة !

وأضاء الأركان المظلمة من القبو المعتم ..

فى نفس اللحظة التى صرخت فيها مرتاعة !

* * *

ماذا رأيت فى الركن المظلم ـ أقصى اليمين ـ الذى أضاءه السيد (رفقى) ؟!

السيدة (شيرويت) هانم جالسة فوق مقعد أرابيسك ـ يطابق الذى رأيته فى حجرة نومها ـ ترمقنى و(رحاب) بنظرة خاوية !

ولما كان هذا لا يستدعى الصراخ ، لماذا صرخت إذن ؟!

لأننى فوجئت بقطها السمين (أصيل) بك ـ كما تسميه ـ يقفز فوق رجلىّ ويستقر فى أحضانى بمنتهى الوداعة !

لقد كان هو الذى يتحرك بنعومة حولى دون أن ألاحظه !

لا يسألنى أحد عن سبب وجود السيدة العجوز فى هذا المكان ، ولا عن سر عدم ملاحظتى لوجودها منذ البداية ، ولا عن أى استنتاجات يمكن الخلاص إليها الآن ، ليرفع أحدكم هذا الوحش عنى أولاً ثم نتفاهم .

(رحاب) نفسها أغلقت صنبور دموعها وطفقت تنظر نحوى فى استغراب لا ينقصه الاستنكار ، ولسان حالها يسأل : كيف لا يطرف لك جفن وأنت على موعد مع الموت خلال ساعات ، وتملئين الدنيا بهذا الصراخ المستمر الذى لا ينقطع جزعًا من هذا المخلوق الحيوانى المدلل ؟!

أما (رفقى) ، فبدا كأنه يشاهد اسكتشًا كوميديًا ، فضحك حتى استلقى على قفاه (تعبير بليغ شائع لا أكثر !) ، ثم سأل فى النهاية على سبيل الاستظراف :

ـ أعلم تلك العداوة المتأصلة بين المرأة والفأر ، ولكن القطة ؟!

ـ إنه قط يا (رفقى) ، قط لا قطة ، أخبرتك بهذا ألف مرة ..

ـ حقًا ؟! هذا لا يصنع فارقًا عندى ..

ـ ولكنه يصنع فارقًا كبيرًا عندى أنا ..

حوار عقيم مع السيدة (شيرويت) هانم أنهاه بأن امتعض ماطًا شفتيه .. بينما كنت أنا ألهث بعد لحظات من مفارقة (أصيل) لمكانه فوق فخذى متململاً ، أو كأنما أزعجه صراخى فرأى المكان غير مريح له بالمرة !

ـ عمومًا ، ها هو ذا قد أفسد وقع المفاجأة على صحفيتنا الصغيرة ..

كانت حقًا مفاجأة ، لكن صوتى احتبس ـ من الصراخ ـ فلم أقو على فتح فمى بالسؤال ..

قالت (شيرويت) بصوتها الحاد الرفيع المتقطع :

ـ إنها نهايتها إذن ..

قال (رفقى) هازًا رأسه بالإيجاب :

ـ قطعًا ..

بمجرد أن استعدت قدرتى على التفكير الآدمى الطبيعى فهمت على الفور ، إن (شيرويت) هانم شريكة لـ (رفقى) فى كل شىء ، لقد كانت مؤامرة محبوكة تمامًا ، ولولا وجودها هنا الآن لما كان هذا قد خطر ببالى أصلاً ! حتى أنت يا (شيرويت) هانم !!!

يا لغبائى .. أو يا لذكائها ، لا فارق !

ـ لقد .. لقد نجحتما فى خداع الجميع !

قال (رفقى) فى سخرية :

ـ هذه شهادة نعتز بها ..

ـ كانت تمثيلية متقنة بحق (شيرويت) هانم .. فمن ذا الذى يشك فى عجوز لا حول لها ولا قوة ، تقضى أواخر أيامها بين حفنة من القطط ..

احتضنت السيدة (شيرويت) قطها ، وقالت فى حقد صبغ رنة صوتها بلون قاتم :

ـ إنك تفسدين الأمر بنفسك أيتها الطفلة .. عجوز لا حول لها ولا قوة ، ليس لها من سند سوى حفنة من القطط

والذكريات ، لا تسأل عن أحد ولا يسأل عنها أحد .. كل من حولها تخلى عنها وتركها كومة من العظام المتهالكة .. ماذا تفعل لكى تواصل الحياة ؟!

منطق غريب .. سألتها فى حدة :

ـ ألم يكن لمواصلة الحياة طريق آخر غير السرقة والخداع ؟!

ـ لم نسرق ولم نخدع .. لقد سرق الحجر الآخر بالفعل ، ولا بد من قبض قيمة التأمين عليه ، فما المانع من استغلال الأصلى والحصول على الأجر المضاعف ؟!

قالها (رفقى) كأنه يلقى بحطب فى نيران أعماقى المستعرة ، دائمًا يجد المجرم تبريرًا لجريمته ، هكذا علمتنى حياة حافلة بالإجرام والمجرمين !

أشارت إليه (شيرويت) هانم قائلة :

ـ السيد (رفقى) هو المسئول عن العملية كلها ، لقد منحته تفويضًا عامًا بإدارتها ..

ـ لكنك تعلمين بالفعل ، وتستطيعين منعه ..

هزت كتفيها قائلة :

ـ الهوانم لا يتراجعن فى كلامهن بتاتًا !

لا فائدة من الحديث ، هذا واضح .. خاصة أن (رفقى) نظر فى ساعته ثم قال :

- لم يبق الكثير ، لدى موعد الآن مع السيد (سمعان) الذى سيشترى الحجر الأصلى ..

وعاد يفرك كفيه قائلاً فى جشع نهم :

- وقد وعدنى بأعلى سعر فور تأكده من أصالة الحجر !

سألت (رحاب) فى صوت مجهد ، ويبدو أنها قد استنفدت كل ما لديها من دموع :

- كم الساعة الآن ؟!

أجابها (رفقى) ساخرًا :

- وهل يصنع هذا فارقًا ؟!

قالت فى إنهاك وهى تعود برأسها للوراء :

- سيقتلنى أبى لو تأخرت !

جلجلت ضحكة (رفقى) ، ثم عقب قائلاً :

- هذا لو عدتِ من الأصل !

سألت أنا ، ويبدو أن (رحاب) لم تسمع ما قال ، فلم يصدر عنها رد الفعل المتوقع ألا وهو الصراخ :

- وماذا ستفعلان بنا ؟!

أخرج (رفقى) سلسلة مفاتيحه ، وأخذ يعبث بها قائلاً :

- الخيارات كثيرة ، لكنى أحاول اختيار طريقة أنيقة وسهلة ومبتكرة للقتل السريع بدون ألم ، إننى هاوٍ للفن كما تعلمان !

- سيشكون فيكما بالتأكيد فور عثورهم علينا ، حتى ولو كجثتين .

هز كتفيه قائلاً فى استهانة :

- ومن يستطيع منعهم من هذا ؟! لكن سيكون عليهم إثبات التهمة بدليل قاطع لا أظنهم سيحصلون عليه ..

يبدو محقًا ، فالشكوك ليست أسانيد قانونية على الإطلاق !

- لقد أضعنا معكما وقتًا أكثر من اللازم .. هيا بنا يا (شيرويت) هانم ..

ومضيا يصعدان نحو باب القبو الخشبى العالى ، و (رفقى) يشير لنا هاتفًا :

- إلى اللقاء يا فتيات ! استمتعا بوقتكما حتى أعود إليكما فور إنهاء الصفقة ..

وامتدت يده نحو مزلاج الباب .. عندما هتفت أنا منادية :

- سيدة (شيرويت) !

هل تعمدت استفزازها ؟! ربما ..

- (شيرويت) هانم يا عديمة النظر !

ـ عذرًا .. (شيرويت) هانم .. لدى سؤال واحد فقط ..

ـ .... !

ـ هل قصة (روحية) هانم حقيقية ؟!

صمتت لتغيب بخواطرها فى بحر التأملات ، حتى قالت فى النهاية :

ـ أجل .. حقيقية تمامًا ..

ولا يسألنى أحد عن سبب سؤالى ، إنها أحد الأشياء الكثيرة التى أفعلها دون أن أدرى لها سببًا !

* * *

١٤ ـ وحدنـا !

هل سيتدخل السيد (س) ـ مثلما فعل فى المرة السابقة ـ وينقذنى و (رحاب) فى اللحظات الأخيرة ؟! لا أشعر بهذا !

ثم أين هى هذه اللحظات الأخيرة ؟! إن الوقت يمضى والليل ما زال حالك الظلمة ، والنجوم تلمع من وراء تلك النافذة العلوية الصغيرة ذات القضبان الحديدية الصدئة ، ربما تجاوزنا منتصف الليل بكثير ، فلا أحد يعلم إلا الله (سبحانه وتعالى) ، كم لبثنا غائبتين عن الوعى ..

أتحاشى قدر جهدى النظر نحو (رحاب) ، لكن عينىَّ تغافلاننى ، وتختلس نحوها نظرة جانبية ، ها هى ذى جالسة دون أدنى أثر للحياة سوى صدرها الذى يعلو شهيقًا ويهبط زفيرًا ، مدلية رأسها إلى الخلف ، محدقة بعينيها اللتين استنزفتا دموعهما فى السقف ، وقد استحال لون بشرتها الخمرى النابض بالحياة والحيوية إلى الأبيض الصريح ..

(كل هذا البياض يذكرنى بالكفن) !

قالها (أمل دنقل) على فراش المرض ، فى الحق لقد كان الموقف شاعريًا حتى إننى تذكرت كل الشعر الذى قرأته وحفظته طوال حياتى !

مسكينة (رحاب) .. لو لم أكن أعرفها لقلت فور رؤيتي لها على هذا الحال أنها قد تحولت إلى مصاصة دماء من نسل (دراكيولا) .. ولن أصف لكم مدى شعورى بالذنب ، فمهما أوتيت من فصاحة لن أستطيع وصف الواحد من الألف مليون مما شعرت به ساعتها !

لقد اتجه فكرى نحوها لأنها تهوى المغامرات والرعب ، لكنى أشك أنها ستظل وفية لهذا الهوى لو قدر الله وأنجانا ، بل إنى أشك أنها ستبقى على صداقتها معى ، أو ربما صفحت عنى بعد عشرين عامًا !

من يدرى ؟!

صوت ساعة يدى أسمعه ، التروس تدير العقارب ، لكن يدىَّ مقيدتين خلف ظهرى فى هذا الكرسى اللعين ، ولست محظوظة - كأبطال الأفلام - لأجد شظايا زجاج متناثر هنا أو هناك ، فأستخدم شظية لبرد الحبل ، ثم أفك وثاق (رحاب) وأحملها فوق كتفى ، ولا مانع من قنبلة موقوتة تنفجر مع عبورنا بوابة القبو لزوم الإثارة والأكشن !

كلا .. لست أظننى أصلح لهذا .. إنه يليق بـ (أرنولد شوارزنجر) أو (سلفستر ستالون) أو (فان دام) أكثر من (نسرين فاروق) !

ماذا بوسعى أن أفعل إذن أكثر من الانتظار ؟!

لا .. لن أنتظر .. لن أنتظر ..

- لا بد أن نفعل شيئًا !

قلتها ، وأحسست كم أنا حمقاء ! وأحست (رحاب) بذلك .. بالتأكيد .. فلم أسمع منها جوابًا ولم يتغير وضعها قيد أنملة .. لكنى حاولت التغلب على هذا الإحساس السلبى بمزيد من الحماس الإيجابى :

- فكرى معى يا (رحاب) ، إن لك خبرة واسعة فى مجال الروايات البوليسية ..

ندت عنها ضحكة ساخرة مبتورة ، وقالت دون حراك :

- كان ...

ومالت برأسها يمنة ويسرة وهى تدندن بأغنية (ليلى مراد) الشهيرة :

- (كان فعل ماضى ماتسيبيه فحاله) !

- هيا فكرى معى ولا تكونى انهزامية !

تظاهرت بالصمم وهى تغلظ من نبرتها لتقلد (الريحانى) وهو يغنى :

- (حاسس بمصيبة جايالى) !

هذه الفتاة على حافة الانهيار العصبى ، أو الجنون الرسمى ! لو حدث فسأحمل ذنبها ما بقى لى من العمر ..

- (رحاب) .. حاولى أن .....

بترت عبارتى فجأة ، وقد لمعت فكرة ما فى رأسى كالشهاب !

- (رحاب) ، اسمعينى جيدًا ، هل كنت فى كامل وعيك فى أثناء خروج (رفقى) ، و (شيرويت) من هذا الباب ؟!

لم تجب ، لكنها رفعت رأسها وحدقت فىّ محاولة استنباط ما أفكر فيه ..

- هل سمعت تكة غلق الباب بالمفتاح ؟!

لقد فهمت ما أرمى إليه ، لكنها لم تبد واثقة مما أقول .. إنها فى حاجة لدفعة حماسية تنفض عن عزيمتها غبار اليأس والاستكانة :

- أنا واثقة أنى لم أسمعه .. لقد ارتكب المجرمان الخطأ القاتل الذى لم ننتبه له فى حينه ، لقد أغلقا الباب ونسيا إدارة المفتاح فى ثقبه .. وهذا معناه أن الهروب من هنا مسألة فى غاية السهولة والبساطة ..

- ربما .....

مازالت خائفة !

- ربما ماذا ؟!

- هما ليسا بهذه السذاجة !

- ومن ذكر السذاجة الآن ؟! إنها أخطاء البشر التى لا يعصم منها سوى الخالق (سبحانه وتعالى) ..

حمدًا لله .. لقد بدأت تقتنع .. ها هى ذى ملامحها تسترد بعضًا من معالم الحياة ..

- ولكن .....

مازالت مترددة !

- دائمًا يرتكب المجرم خطأ ما ، هذه قاعدة أساسية فى كل القضايا البوليسية ..

هزّت رأسها موافقة ثم قالت :

- أستطيع فهم هذا ، لكنى لم أكن أتحدث عنه .. كنت أعنى كيف نستطيع الوصول إلى الباب ونحن مقيدتان فى هذين الكرسيين ؟!

إنها محقة ! لقد جرفنى الحماس كالمعتاد بعيدًا عن نقطة بديهية للغاية .. لكنها ليست بالمعضلة على كل حال ..

- أظن أننا نستطيع الوقوف مع السير الهوينى ..

وبدأت بنفسى ، ومع الكثير من الجهد استطعت النهوض ، والكرسى ملتصق بى تمامًا ، مما دعانى لخفض ظهرى بشدة نحو الأمام حتى كاد نصفى العلوى يصنع زاوية قائمة مع النصف السفلى ..

أما عن المشى ، فحدث ولا حرج !

لكنى مع هذا ابتسمت وهتفت بها متظاهرة بالظفر والسعادة الغامرة :

ـ هل رأيت ؟! منتهى السهولة !

لم أر انطباعها لأنى لم أقو على رفع رأسى ، لكنها كانت مثلى تمامًا بعد دقيقة واحدة ، وبدأنا السير نحو السلم ونحن لا نرى ـ بعيدًا عن التشبيهات الأدبية ـ أبعد من أقدامنا !

وعند الدرجة الأولى ، أمسكت بيدها وبدأنا رحلة الصعود المستحيل نحو الباب !

وعندما ثبتنا قدمينا على الدرجة الأولى هتفت أشد من أزرها :

ـ هيا .. نستطيع أن نفعلها بنجاح ..

ـ (نسرين) .. لقد تعبت !

قالتها عند الدرجة الثالثة ، فسألتها فى حدة :

ـ مم ؟! اعتبريها رياضة كالتى تمارسينها كل صباح أمام التليفزيون !



لم أر انطباعها لأنى لم أقو على رفع رأسى ، لكنها كانت مثلى تمامًا بعد دقيقة واحدة ، وبدأنا السير نحو السلم ونحن لا نرى ـ بعيدًا عن التشبيهات الأدبية ـ أبعد من أقدامنا ؟

ـ نعم .. ولكن ..

ـ لا يوجد لكن .. لا تنسى أننا نهرب من محاولة قتلنا ، ولا نريد تحقيق رقم قياسى جديد فى تسلق المرتفعات ..

عند الدرجة الرابعة .. كنت أنا ألهث وظهرى يئن من الانحناء ، والمشكلة أننا لا نعرف كم درجة بقيت حتى نصل !

بينما عادت (رحاب) تهتف متأوهة :

ـ (نسرين) ..

ـ ماذا هذه المرة ؟!

ـ تلاشت قدرتى على الاحتمال ..

ولم أستطع الرد عليها .. لا لشىء أكثر من أنها تبعت قولها بالفعل ، فانفرد ظهرها رغمًا عنها .. وكانت النتيجة المؤسفة ..

لقد انزلقت بكرسيها المقيدة إليه على الدرجات الحجرية ، ولأنها كانت تمسك بيدى فقد حاولت أن تتشبث بى ، لكنى لم أكن أحسن منها حالاً ، فانزلقت معها فوق الدرجات ، وارتطمنا بالأرض فى نفس اللحظة ..

وكل ما أذكره بعدها هو أننى حاولت أن أصرخ :

ـ (رحاااااب) ..

لكنى لا أدرى إن كنت فعلت أم لا ، كما لا أدرى إن كان هذا البرق الذى التمع فجأة مشفوعًا بهزيم رعد مدوٍ قد حدث فعلاً ، أم أنها تخاريف الغيبوبة !

★ ★ ★

الشارع المظلم ، أعمدة الإنارة الزرقاء ، السيارات (البورش) العتيقة ، المطر يهطل بلا توقف ، البرق يلمع ، الرعد يهزم ..

وأنا فى معطف المطر الجلدى .. لكنى لا أشعر بأى برودة ..

يدوى وقع أقدامى فى الشارع الخلفى الخالى من المارة ، أتجه إلى هدف أعرفه ، ولا أعرفه ..

حتى فى الظلام ، يقف فى الظل ..

ألمح تفاصيل لم أتبينها فيه من قبل ، دخان سيجارة ، وقبعة الغرب الأمريكى ..

أبرز بطاقة هوية :

ـ المحققة (نسرين) من مكتب التحقيقات الفيدرالية !

هل ابتسم ؟! لكنها ليست دعابة ..

ـ المكتب يشكر تعاونك معنا ، سيد .....

ـ (س) !

- نعم ، ذكروا لى أنك الرجل الذى لا يعرفه أحد !

- نسوا أن يخبروك أنه هو نفسه لا يعرف نفسه !

- لكن .. هل أنت موجود ؟!

- نعم .. فى داخل صندوق محكم فى أعماق البحار المظلمة ..

أتحول فجأة ، من صرامة المحققين ، إلى براءة طفلة فى الرابعة ..

- ومتى أراك ؟!

يصمت ، ويلقى بعقب سيجارته ، وينظر إلى برغم أنه ليس له عينان ..

- أنا أحيا داخلك يا فتاة ..

- حقًا ؟!

- ألا تشعرين بهذا ؟!

- أشعر .. لكنى لا أرى ..

- يكفى هذا مؤقتًا ..

- إلى متى ؟!

يطرح هو - هذه المرة - السؤال الأبدى الخالد :

- من يدرى يا فتاتى ؟! من يدرى ؟!

ويتلاشى فى العدم !

★ ★ ★

١٥ - نهاية متوقعة !

أفقت فجأة ، وبدون نشادر هذه المرة ..

تلفت حولى .. لقد رأيت هذا المنظر من قبل .. تذكرت .. الشهر الماضى كنت راقدة فى نفس السرير فى نفس الحجرة ، عند أبى بالمستشفى .. وفى هذه المرة أيضًا - كالمرة الماضية - كان أبى يراجع تقارير الفحص ، بينما (هشام) جالس إلى مقعد بجوارى ، وقد هتف بمجرد أن لمح جفنى ينفتحان :

- لقد أفاقت يا دكتور ..

هزّ أبى رأسه بمعنى أنه يرى .. وقد قال بلهجة شفّت عما عاناه من قلق قاتل فى الساعات الماضية :

- حمدًا لله على سلامتك يا بنتنا العزيزة !

سألت على الفور :

- أين (رحاب) ؟!

رد أبى دون أن يرفع ناظريه من فوق تقارير الفحص :

- فى الحجرة المجاورة وحولها فريق من الأهل والأقارب المصرين على ألاّ يفارقوها ..

- أهى بخير ؟!

ـ لم تفق بعد ، لكن حالتها تبشر بتحسن ..

زفرت فى راحة ، لقد انزاح حمل مهول عن كاهلى المنهك ! لكن أبى لم يشأ أن يغادر الحجرة قبل أن يقول مشعرًا إياى بذنب من نوع آخر :

ـ بعكس حالتك التى تزداد سوءًا مع الأيام !

وأغلق خلفه الباب ، تاركًا (هشام) معى ، يقول :

ـ لقد ارتكبت ذات الخطأ فى يومين متتاليين ..

ـ سأقبل عقابه أيًا كان نوعه ..

ـ حسنًا ، سأتركك الآن لتنالى قسطًا من الرا.....

قاطعته فى لهفة :

ـ لا .. لا تذهب قبل أن تخبرنى بكل ما حدث منذ فقدت الوعى حتى وصولى إلى هنا ..

قال فى تسليم :

ـ برغم أن السائل من المفترض أن يكون أنا ، ففى قضيتك أنت بالذات مازالت هناك نقط كثيرة يلفها الغموض ..

ـ سأخبرك بكل شىء ..

رويت له فى عجلة ما حدث منذ ذهبت لـ (رحاب) ، ثم قلت فى النهاية :

ـ والآن هات ما لديك ..

ـ نفس سيناريو ما حدث فى الشهر الماضى يتكرر مع تغيير بعض التفاصيل :

ـ أولاً : غيابك غير المبرر المصحوب باختفاء (رحاب) صديقتك ، وبحثنا فى كل الأماكن دون جدوى .

ـ ثانيًا : مكالمة هاتفية من مجهول تنبؤنا عن حدوث أشياء مريبة فى غرفة بأحد فنادق الخمسة نجوم ، وذهاب قوة من الشرطة إلى هناك لتجد (رفقى) مقيدًا فى سرير وبجواره شريط تسجيل يحوى تسجيلاً مثيرًا لاعتراف كامل بين أطراف أربعة ، كنت أنتِ أحدهم ، و ...

ـ تقصد ذلك الحوار الذى دار فى القبو الذى كنا فيه ؟!

ـ تمامًا ، لقد سجله شخص ما ، ربما عن طريق ميكروفون صغير زرعه فى ملابس (رفقى) أو (شيرويت) ..

ـ إنه السيد (س) قطعًا !

ـ لقد ترك بطاقة تحمل توقيعه بجوار الشريط ، ودون تعليقات ساخرة ككل مرة !

ـ ألم أقل لك ؟! أكمل ...

ـ ثالثًا : هروعنا إلى فيلا (شيرويت) بجاردن سيتى والعثور عليكما فى حالة مزرية بقبو الفيلا !

مندهشة سألت :

- هل كنا فى قبو فيلا (شيرويت) ؟!

- نعم ..

- وماذا عنهما ؟! أعنى (رفقى) و (شيرويت) ..

- (رفقى) ، لم يستطع الإنكار أمام ما أسمعناه إياه .. واعترف بكل شىء .. حيلة التأمين ، وصفقته مع سيد (سمعان) و ...

شردت عندما ذكر هذا الاسم ، لقد ذكره (رفقى) فى القبو أيضًا ..

كيف لم أنتبه لهذا ؟! (سمعان) اسم يبدأ بحرف السين ..

لقد كان السيد (س) مع (رفقى) من البداية ، وعلم - بطريقة ما - بمخططه الدنىء ، فآثر منعه بكل الوسائل .. سرق الحجر الزائف واتفق على شراء الحجر الأصلى ..

يا للدهاء !

- أما (عين القط) الأصلية فقد اختفت تمامًا ..

- إنها مع السيد (س) بالتأكيد ..

سيعتبرونها سرقة ، وسأعتبرها أنا مقابلاً ضئيلاً لكشف خطة نصب فى غاية المكر والخبث .. لن أجادل فى هذا فلن يقتنع أحد بالتأكيد ..

وعدت أسأله :

- وماذا عن (شيرويت) هانم ؟!

- كانت موجودة بالفيلا ، ولكن على سريرها كجثة هامدة بلا روح ..

بذهول سألت :

- ماتت ؟!

- يقول الطبيب الشرعى إنها لقيت حتفها بطريقة طبيعية تمامًا ، أزمة قلبية من أثر الشيخوخة ، لكن المريب أن نافذة غرفتها المطلة على الحديقة كانت مفتوحة ، دون أن نجد أى آثار لمحاولة تسلل للفيلا ..

شردت أفكر .. ولما طال بى الأمر هكذا سألنى مبتسمًا :

- ما بك ؟! ظننتك ستقولين إن السيد (س) هو من فعلها !

- كلا .. لم يكن هذا ما أفكر فيه .. فعدت أسأله :

- وماذا عن قطها السمين ؟!

- هو الآخر كان جثة هامدة ، لقد أثار هذا دهشتى فى البداية ، لكننى عزوت الأمر لمحض الصدفة ، أو ربما مات القط حزنًا على وفاة صاحبته ! يمكنك القراءة عن هذا فى كتب سيكولوجية الحيوان !

ـ و (تحية) ؟!

ـ (تحية) من ؟!

ـ الفتاة الصغيرة التى .....

ـ عم تتحدثين ؟! أى فتاة صغيرة ؟!

لقد فرت بجلدها إذن وصارت هى الناجية الوحيدة من لعنة (روحية) هانم !

(إنها حقًا مستاءة) !

* * *

أمر واحد لم يفسره سياق الأحداث ، آثار الأقدام التى رأتها (فاتن) صباح يوم الإبلاغ عن السرقة ، ووصفتها بأنها لقط ، لذا لزم التفسير ..

إن هذا الأمر يحتمل عدة تفسيرات :

١ ـ أن تكون (فاتن جاد) مخرفة !

٢ ـ أن تكون السيدة (شيرويت) قد زارت (رفقى) ليلة الحادث بصحبة قطها الأثير (أصيل) بك ، فانطبعت آثار أقدام هذا الأخير فوق الغبار الذى يغطى السيراميك ، وهذا ما ستفصح عنه اعترافات (رفقى) فى المحاضر لو كان قد حدث ..

٣ ـ ألا يكون الأمر متعلقًا نهائيًا بقضيتنا ، وتكون القصة أن قطًا شاردًا قد دخل الجاليرى ربما لأنه من متذوقى الفن الرفيع !

٤ ـ أن تكون للسيد (س) أقدام قط !

عمومًا هذا لن يفيدنا كثيرًا بعد كل ما حدث ، وبعد انكشاف كل شىء !

* * *

ـ عظيم يا (نسرين) .. هذا ما أنتظره منك دائمًا !

تردد صدى العبارة داخلى آلاف المرات ، وتذكرت ملامح السيدة (ألفت) عندما فرغت من قراءة موضوع (عين القط) ، وإرسالها للموضوع إلى قسم المونتاج على الفور ليلحق بالعدد الجديد ، ثم تربيتها على كتفى ، وقولها هذه العبارة ..

كل هذا وأنا أنظر إلى اسمى الذى طبع للمرة الثانية تحت الخبر بالجريدة ، والشكر للسيد (س) !

نظرت إلى الهاتف .. هل سيفكر فى الاتصال مرة أخرى ؟!

لا أدرى ..

لكنى سأنتظر ..

إننى لم أكتب عنه شيئًا بعد ، لم يحن وقت ظهوره للجماهير .. لكن هذا سيحدث يومًا ، متى وأين وكيف ؟!

لا أدرى ..

وعدت أنظر نحو الهاتف ، الصامت تمامًا !

* * *

نهاية أخرى .. غير متوقعة !

الليل سكون ، وسكينة !

لكن الأطفال أبدًا لا يعرفون الهدوء ..

هتف ذلك الصبى السمج ، ذو الشعر الأشقر المنسدل على جبينه كقبعة ، والوجه الملىء بالبقع الداكنة ، والعينين الضيقتين الموحيتين بشر طفولى :

ـ فتاة بلهاء ! إنها تخاف من القطط !

قال فتى آخر :

ـ إن القطط تخمش .. لهذا فهى مؤذية ..

صاح صبى :

ـ هراء .. إن أختى الكبيرة لديها ثلاث قطط وديعة ، تسقيها اللبن بنفسها كل صباح ..

هتف ثالث :

ـ من منكم يخاف الكلاب ؟!

اضطربت أصواتهم بين مؤيد ومعارض ، فعاد الصبى يهتف فى فخر :

ـ أخى الأكبر لديه كلب (بولدج) مهول فى المنزل !

هتف به الفتى السمج مستخفًا :

ـ وماذا فى هذا ؟!

سأله الصبى فى تحد :

ـ ألا تخاف الكلاب يا (تامر) ؟!

عقد (تامر) ساعديه قائلاً فى اعتداد :

ـ أنا لا أخاف شيئًا البتة ..

وفى نفس اللحظة تعالى نباح كلب ، أتى من بعيد ، واقترب فى سرعة ، إنه كلب شرس يعدو نحو الأطفال معلنًا عن قدومه !

وتفرق الجمع ، وكان (تامر) هو أول الفارّين !

لجأ كل منهم إلى مدخل البناية التى يقطن فيها ، ليحتموا من شر هذا الكلب ، فلم يكن أحد منهم يحب الواحد والعشرين حقنة التى يتردّد أن من يعضه كلب مسعور لا بد أن يأخذها كلها !

وقف (تامر) يلهث ، وتشاغل عن خوفه بالتطلع إلى الشارع المضاء نسبيًا ، حتى أحس بيدين قويتين تدفعانه فى صدره ، وتلصقانه بالحائط ..

هتف فى رعب :

ـ من ؟!

لم يستطع فى هذا الظلام الدامس تمييز ملامح ذلك الذى يضغط براحتيه فوق صدره الصغير .. فعاد يهتف فى رعب يتزايد :

ـ من أنت ؟!

جاءه صوت غريب ، لم يسمعه من قبل ، ولا يدل إن كان قائله رجلاً أم طفلاً صغيرًا :

ـ إياك أن تفكر فى إيذاء الفتاة مرة أخرى .. هل تفهم ؟!

قال (تامر) وهو على وشك البكاء :

ـ أفهم .. أفهم .. أنا آسف ..

قال الصوت مرة أخرى :

ـ لو كنت أكبر من ذلك قليلاً ، لنلت جزاءك الحقيقى ..

ورفع كفيه من فوق صدر (تامر) ، ودفعه ليسقط فى بئر السلم وهو يقاوم رغبته فى البكاء . من هذا ؟! وما الذى دفعه لفعل ذلك ؟! وأين ذهب ؟!

نهض (تامر) بصعوبة ، وأخذ يتلفت حوله باحثًا عن أى أثر لهذا الشخص ، لكن الظلام وألم السقطة حالا دون ذلك .. حاول تحمّل الألم وخرج إلى الشارع المضاء نسبيًا ، ولم يجد هناك أيضًا أى أثر له ..

كأنه قد تلاشى فى العدم !

لم يستطع عقل (تامر) الصغير إدراك الأمر ، فعاد إلى البناية وقد فقد شهيته للهو واللعب عازمًا على الصعود إلى شقته ، دون أن يلاحظ ذلك الحرف الكبير المكتوب عند مدخل البناية بالطباشير الأبيض ، وبخط طفولي نوعًا ..

حرف (س) !

* * *

[تمت بحمد اللّه]

(الرواية القادمة)

[الأعرج]

روايات مصرية للجيب

سلسلة الروايات

فى كل رواية متعة دائمة !!



محمد سليمان عبد المالك

مغامرات "س"

عين القط

هناك من يتشاءم منه ، ومن يتفاءل به ...

من يهابه ، ومن يعشقه ...

من يطالب بقتله فى الخرائب ، ومن يرعاه فى دفء بيته ...

القط ... أكثر مفردات الرعب إلهامًا بشهادة (إدجار آلان بو) ... و(نسرين ال[illegible] ...!

لكنك لن تعرف [illegible]د (س) فى هذا الموضوع ..

إلا إذا قرأت [illegible]



الثمن فى [illegible]
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم